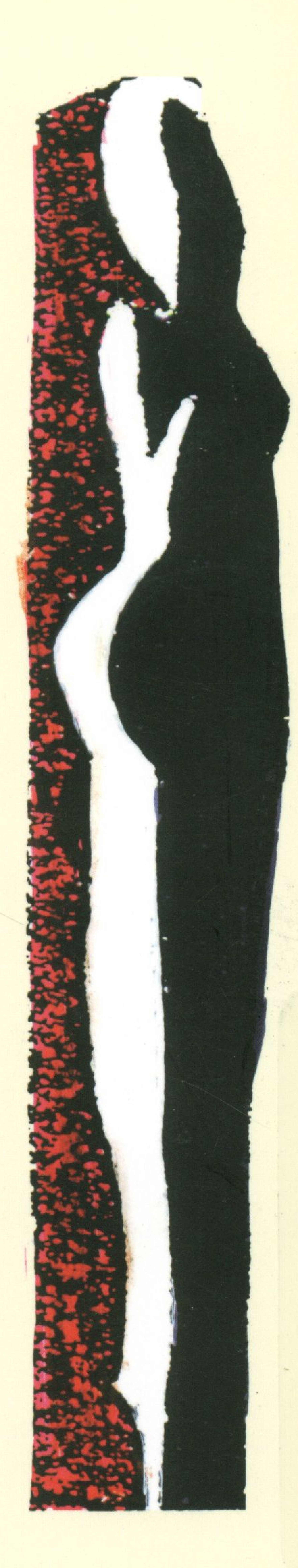
عوض مبارك

# سفر في جسد امرأة

رواية





# سفرٌ في جسد امرأة

عوض مبارك

# سفرٌ في جسد امرأة

رواية

دار الفارابي

الكتاب: سفرٌ في جسد امرأة
المؤلف: عوض مبارك
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان
ت: ٣٠١٤٦١(٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥(٠١)
ص.ب: ١١/٣١٨١ - الرمز البريدي: ٢١٣٠ ١١٠٧
www.dar-alfarabi.com
**e-mail:** info@dar-alfarabi.com

**الطبعة الأولى: شباط ٢٠١٥**
**ISBN:978-614-432-260-4**

# المحتويات

# إهداء

إلى روح أبي...

تعلّمنا منك غنى النفس في أشدّ أوقات الفقر مرارة...

عشت صابراً ومت صامداً فكنت خير مثال يحتذى...

ليرحمك الله بقدر قطرات عرقك التي روت الطين الذي أحلته

إلى فخار كي تؤمّن لنا غذاءنا ودواءنا وكساءنا وتعليمنا...

# بادئة

لبيروت وجهان، وجه جميل يعرفه الذين يشاهدونها من الخارج، ووجه آخر يعرفه الغرباء الذين حط بهم الترحال بلبنان!

لقد أبدع الشعراء أروع القصائد وألف الروائيون أجمل القصص التي تضمنت سحر الطبيعة اللبنانية، جمال المرأة اللبنانية، ألق الليالي اللبنانية، عبقرية الفن اللبناني الضارب الجذور، التاريخ اللبناني الحافل بالبطولات والمآثر والذي تشكل من أرقى الحضارات. ثم ينتقلون- الأدباء- إلى وصف الحرب الأهلية التي نشبت بين الطوائف الدينية في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وإلى الاجتياح الإسرائيلي الذي أسفرت عنه مذابح صبرا وشاتيلا الدامية، وإلى المقاومة اللبنانية الباسلة وصمود الشعب اللبناني أمام العدو إلى أن أجبره على مغادرة أراضيه. فأبدع المبدعون ملاحم سينمائية ومسرحية وتلفزيونية وشعرية وقصصية صوروا خلالها المأساة والمأثرة أجمل تصوير. فتكونت في الذاكرة العربية ثقافة متكاملة عن تلك الحقبة التاريخية المتأججة عن لبنان واللبنانيين، وخصوصاً أن أيادي خارجية كثيرة إقليمية وعالمية قد لعبت، في الخفاء والعلن، دوراً كبيراً في تصعيد

الحرب وتأجيج نيرانها. وبرغم كل ما صحبها من ألم، إلا أنها تضاف إلى رصيد اللبنانيين الجمالي والأخلاقي الذي تجسّد في احتضانهم للمقاومة الفلسطينية في أحرج وأصعب مراحلها ومقاومة اللبنانيين أنفسهم للاجتياح الإسرائيلي، إلى أن تمكنوا من إجلائه عن أراضيهم باستثناء الجنوب الذي تم تحريره لاحقاً بسواعد اللبنانيين أنفسهم.

ولكنهم- الأدباء- يجهلون أو يتجاهلون عن عمد، أكان ذلك بدافع الاحتقار، أم الاستعلاء، أم عدم الإلمام والمعرفة بتلك الحياة التي يعيشها مهمشو المدينة، الذين يأتي في طليعتهم الغرباء. ولو أنهم نزلوا قليلاً من أبراجهم العاجية وألقوا نظرة على حياة تلك الفئة المهمّشة لوجدوا قصصاً رهيبة، لا تقل مأسوية وإثارة عن حكايا الحرب. منها على سبيل المثال قصة الشاب السوداني حسام عز الدين. ذلك الفتى الوسيم الذي هرب من جحيم القمع والتهميش الرعاعي الذي تمارسه حكومة الجبهة الإسلامية في بلاده ليقع فريسة لحب امرأة بيروتية واسعة الثراء، ثم يختفي اختفاءً غريباً لا يزال لغزاً محيراً، ولا يزال مثار جدل وأحاديث وإشاعات تصل إلى حد المبالغة، جعلت منه شخصية شبه أسطورية!

سيروي لنا حسام شخصياً قصته من ألفها إلى يائها مذ ولجت قدماه الأراضي اللبنانية إلى لحظة اختفائه المؤثرة التي لم يعرفها أحدٌ سواه وأولئك الذين تسببوا باختفائه!!

# وصمة عار

فرغت من الروتين اليومي لعملي غير الشاق بالمقارنة بالأعمال التي ظللت أمارسها مذ حللت بلبنان قبل عام. أستيقظ في الصباح الباكر، حيث الرطوبة والأنسام المشبعة بعبق البحر، وخلائط من أصوات نعيق سيارات وهدير طائرات وصيحات بائعي أوراق اليانصيب الذين يروحون ويغدون أمام البناية. أستهل يومي بفتح البوابة الرئيسة، أهبط درجات السلم الذي يفضي إلى موقف سيارات ساكني البناية للتحقق من سلامتها، ثم أصعد مرة أخرى كي أجلس على الكرسي الخشبي ذي الجاشية الإسفنجية والغلاف البلاستيكي أمام المدخل، مقدماً تحايا الصباح للسكان وأبنائهم المغادرين إلى أعمالهم ومدارسهم ومودعاً لهم في الوقت نفسه. أناس محترمون، يقدمون التحايا بلطف ويردونها بلطف مصحوب بنظرة سريعة وقلقة؛ هذا ما لحظته منذ الوهلة الأولى لمقدمي وتعاملي مع اللبنانيين، يجذبونك بجمال مظهرهم وأناقة هندامهم ولطف عباراتهم بالغة المجاملة: (ياحبيب قلبي، يسلمو الأيادي، تكرم عينك، ع راسي، يقبرني ربك، يا حشيشة قلبي)، ولكنهم سرعان ما يربكونك بنظراتهم القلقة، عزوت ذلك إلى

ركام عشرين عاماً من الحرب التي عجزوا هم أنفسهم عن إيجاد مبرر أو حجة منطقية لنشوبها! شعب ظل على مدى عقدين من الزمان يعاني النوم القلق بسبب الانفجارات المدوية وصفارات الإنذار وضوضاء المولدات الكهربائية بسبب انقطاع التيار الكهربائي المتواصل، فِلمَ لا ينتابهم القلق ويستبد بهم توتر الأعصاب لأبسط الأسباب؟ لست هنا بصدد تحليل الوضع النفسي للبنانيين، إنها مجرد ملاحظة أثارت فضولي وساقتني لمزيد من المراقبة والتفحّص...والإعجاب، نعم، إعجاب بأنشطتهم الثقافية المتأججة، بصحافتهم التي لا ترحم رئيساً ولا وزيراً، ولا نائباً برلمانياً إذا بدرت من أي منهم هفوة ما. لقد كيفوا أنفسهم مع المعاناة، وظروف الحرب ونجحوا في الاستمرار، مواصلين السير على الأشواك عبر طريق طويلة وعرة، بنايات تعمّر، جسور تشيّد، طرق تعبّد، كتب تنشر، صحف تصدر كل صباح، مصانع تنتج، أندية رياضية لا تتوقف عن الألعاب والتنافس، دور عرض لا تكف عن عرض كل ما هو جديد في دنيا الفن، سفن وطائرات تقلع وترسو في موانئ ومطارات لبنان محملة بالبضائع والبشر! ألا يكفي هذا ليكونوا مثار دهشة للعالم بأجمعه؟

إنني بصدد ما حدث لي هنا... في هذا البلد، بين أفراد شعبه الذي أثار إعجابي وجدد حبي للحياة وأيقظ تفاؤلي بعد سبات طويل. هنا حدثت لي أشياء لو قدّر لي العودة إلى وطني ورويتها لأصدقائي فلن يصدّقوني، ولو علم أبي أنني أعمل حارساً في بناية سكنية، وأن مالك

البناية هو امرأة، وأن تلك المرأة صارت تملكني كما تملك أشياءها في شقتها الكائنة في الطبقة الثامنة من البناية. وأنني أقوم بغسل الدرج كل أسبوع وأنظف المدخل وأجمع النفايات لأقوم برميها في المزبلة الرئيسية الواقعة على بضع خطوات من البناية، وأنني أسكن في قبو بأسفل البناية، وأن سكان البناية يعطفون ويتصدقون عليّ بالطعام، تماماً مثلما يفعلون مع الفقراء والمتسولين العابرين، وأنهم يطلبونني عبر الأنترفون كي يرسلوني لجلب حاجاتهم من السوبر ماركت أو لغسل سياراتهم، وأنني أتلقى منهم بقشيشاً نظير تلك الأعمال، وهو (الجعلي) ذو الأنفة، الفخور بنسبه العباسي، لأرسل إليّ من ينهي حياتي في ذلك القبو ويغسل العار الذي ألحقته به. غير أني الآن غير ملزم ولا أعاني من تلك الأعمال. فقد أوقفتها صاحبة البناية بإعلان صغير بخط يدها وتوقيعها يقول: (الناطور ملزم فقط بغسل الدرج والمدخل ورمي النفايات في المزبلة)، وقد ألصقته على بورد الإعلانات في مدخل البناية بنفسها، وهذا يعني أنني لن أقوم بخدمات السكان الخاصة إلا طواعية، وذلك ما ظللت أفعله ردّاً لما ظلوا يغمرونني به من لطف وحسن معاملة مذ حللت بينهم إلى أن غادرت! كنت أنهي أعمالي الروتينية في البناية وأنا أتحرّق شوقاً إلى بدء عملي الليلي مع صاحبة البناية!!

# صدفة محضة

يوم قدمني لها بو فادي أول مرة، أحسست بمزيج غريب من الدهشة والرهبة والإعجاب تختلط بعضها ببعض في صدري. للوهلة الأولى لمحت الأضداد تلتقي في وجهها وتفترق، القوة التي تبدو في ملامح وجهها الحادة يتبعها الصوت الذي يشي بثقة ومقدرة، والمكر الذي يبدو في عينيها ويتجلى بوضوح في نظراتها، الرقة التي تغمرها من رأسها إلى أخمص قدميها حين تضحك. امرأة جميلة، مثيرة، فاتنة، ويتكثف سحرها بشكل أساسي في جسدها البديع الذي يجعل الراهب الورع ينحني أمامه افتتاناً به، جسد تستطيع أن تقهر به مجد هند رستم ومارلين مونرو، القامة الفارعة والصدر الناهد والخصر شديد الضمور الذي يفصل ببراعة نصفها الأعلى عن أسفله، وفكرت أنها إذا مالت قليلاً فسيقع نصفها الأعلى منفصلاً عن أسفله. بيضاء البشرة وقد تجاوز شعرها الفاحم ردفها المستدير ذا الاهتزازات الجهنمية. بدت لي أطول مني قامة حين تقدمت مني لتحييني... أو هكذا توهمت.

- أقدم لك مدام هبة الصرّاف صاحبة البناية!

ومرتبكاً رددت التحية، ومتعمداً خفضت بصري أثناء محادثتها.

- اسمي حسام عز الدين.

ولم تكثر هي استجوابي عن بلدي أو ديني أو أوراق تثبت قانونية وجودي بلبنان. عزوت ذلك إلى أن بو فادي قد أخبرها عني، بالرغم من أنه لم يعرفني جيداً، فقد التقيته صدفة في مخزن لبيع الثياب بسوق البربير، حيث ذهبت لشراء معطف أقي به نفسي من برد الشتاء الذي قيل إنه بالغ القسوة؛ كنت الزبون الوحيد في المحل في تلك اللحظة، وكان هو جالساً خلف مكتبه يحتسي القهوة. حيّاني ببشاشة تقرب من الألفة:

- أهلاً يا زول!

وسألته دون دهشة:

- كيف عرفت أنني سوداني؟

أجابني دون أن يفقد نبرته الأليفة وبشاشة وجهه، وبلهجته اللبنانية التي تمتزج فيها العامية بالفصحى:

- ولو... السودانيين أطيب شعب بالعالم.

في البدء ساورني إحساس بأنه يريد أن يكسب ودي كي لا أغادر المكان من دون شراء شيء. خطر لي أن أقول له: (وأنتم أشطر تجار بالعالم) ولكنني تراجعت، فقد شعرت بأن في ذلك ضرباً من الوقاحة، وفي المقابل اندفع هو يروي بعطف عن علاقاته بأشخاص سودانيين كانوا قد عملوا معه بالعربية السعودية خلال فترتي الستينيات والسبعينيات، وكيف تعمّقت صلاته بهم إلى درجة أنه كان يقضي عطلة

الأسبوع بينهم. ولكي يؤكد لي صدق حديثه، فتح أحد الأدراج وأخرج ألبوماً عتيقاً وعرض أمامي صورهم. هيئتهم وثيابهم وطريقة حلق شعرهم توحي بأنهم من الجيل الذي تسابق نحو دول الخليج إبان الفترة التي أشار إليها الرجل، أكان ذلك بدافع تحسين وضعهم المعيشي أم هرباً من قمع وتسلط نظام نميري وخصوصاً بعد أحداث ١٩ يوليو من العام ١٩٧١م الدامية، حيث لعبت فيها المشانق دور الناطق الرسمي باسم القصر الجمهوري، وحيث سبقتها بعام واحد أحداث أكثر منها دموية في ود نوباوي والجزيرة أبا... معقل الأنصار الذين حصدتهم الدبابات والقنابل التي كانت ترمى عليهم بواسطة الطيران المصري الذي كان يقوده آنذاك الضابط الطيّار محمد حسني مبارك، وهي أبشع مجزرة منذ مجزرة كرري التي أنهى بها الإنكليز حكم الخليفة عبدالله التعايشي.

ظللت صامتاً أستمع إليه وهو يسترسل في إطرائه طيبة السودانيين ووعيهم وانفتاحهم على الآخر. وأوشكت أن أضع حداً لاسترساله بالقول: (السودانيون الذين تتحدث عنهم الآن قد اختفوا... انقرضوا، وخلفهم سودانيون جدد من نوع آخر لا يمت إليهم بأدنى صلة).

ولكنني تراجعت وآثرت الصمت. وكأنه أحس بعدم رغبتي في الحديث، أو أنه رأى قلقاً أو حزناً في وجهي، رأيت عينيه تبرقان بعطف وهو يسألني:

- وين بتشتغل حضرتك؟

أجبته وعيناي تجوبان المكان بحثاً عن معطف يناسبني:

- إنني أستعد للسفر إلى طرابلس للعمل هناك.
- شو بدك تشتغل بطرابلس؟
- ما هو متاح.

وأضفت بعد أن لمحته يرمقني بمزيج من العطف والتشوش:

- كل شيء... كل شيء مطاعم،مزارع، شركات تنظيف، عامل بناء، حمّال...! والواقع أنني سبق لي أن عملت بكل ما ذكرت من أعمال مذ خطت قدماي أرض لبنان ولم أفكر في بدائل عنها لأنها لا توجد في الأصل. مررت عليه بعيني فألفيته يتأملني بنظرات سارحة هذه المرة وكأنه يفكر في أمر ما. كنت قد لمحت معطفاً أسود بدا لي من الصوف، أخبرته برغبتي في شراء معطف جيد. ولكنه بدا غير مبال بطلبي.
- تشتغل ناطور؟

قالها وهو مركز النظر على وجهي، قالها بعطف وبوادر ظفر ترتسم على وجهه. ترددت قبل أن أجيبه عن سؤاله. لقد وجد لي أصدقائي فرصاً عديدة للعمل كناطور بناية ولكنني رفضتها جميعها، فقد كنت أراها مهنة عجزة أو كسالى، مقيدة لحرية الانطلاق والسفر والتقصي، باختصار كنت أراها مهنة خاملة تنسجم مع شخص خامل، ولكن الأمر يختلف الآن عما كان عليه بالأمس، فقد كلت قدماي من السفر والتنقل بين المدن اللبنانية بحثاً عن لقمة العيش، مارست أعمالاً شتى من أجل

توفير مبلغ يمكنني من السفر إلى الغرب، ولكنني لم أجن شيئاً سوى المشقة والإرهاق النفسي من وطأة الخوف والذعر الدائم من حواجز التفتيش وقوات الدرك المتربصة بالغرباء الذين ليست بحوزتهم أوراق تثبت قانونية وجودهم في الأراضي اللبنانية كي تزج بهم في السجون مثلهم مثل المجرمين وقطّاع الطرق إلى أجل غير مسمى ليتم ترحيلهم بعد ذلك إلى أوطانهم.

- نعم ولم لا!

ولم يزد على جوابي كلمة واحدة. صاح منادياً: (فادي) فدخل شاب في مثل سني - في حوالى الثلاثين من عمره - أخبرني فيما بعد أنه ابنه الوحيد وقد تزوج أخيراً وانتقل وزوجته إلى شقتهما الجديدة بالرملة البيضا. قال له إنه ذاهب إلى البناية وسيعود حوالى ساعة وسرنا معاً إلى كورنيش المزرعة التي لا تبعد كثيراً عن المحل، وحيث تقع البناية الجميلة المكونة من ثماني طبقات. في الطريق حدّثني بأنه وزوجته يعيشان وحيدين بعد زواج ابنهما وانتقاله إلى بيته، وأن له أخاً مقيماً في الإمارات وأختاً مع زوجها بالبرازيل، وأنه يسافر برفقة زوجته من وقت إلى آخر إلى البترون بالشمال حيث يملك حقل زيتون. وسألني في المقابل عن اسمي واسم عائلتي وديانتي، فأجبته على قدر أسئلته متجنباً بقدر ما استطعت الحديث عن عائلتي مكتفياً بالقول إنني وحيد وليس لي إخوة. هذا كل ما عرفه عني قبل أن يقدمني إلى صاحبة البناية!

# يوم الخلاص

كانت فرحة غامرة حين هبطت بي الطائرة في مطار دمشق الدولي. فقد كانت المرة الأولى التي أغادر فيها أرض الوطن، بدا لي الأمر وكأنني أفقت تواً من كابوس مرعب، أو أنني أفلت من مخالب وحش ضار قبل أن يمزقني أشلاء. ذلك هو شعور كل شاب حظي بمغادرة الوطن منذ وصول نظام الإنقاذ إلى سدة الحكم. فقد عجزنا تماماً عن تحقيق أبسط احتياجاتنا المادية فضلاً عن المعنوية التي صار ينظر إليها كنوع من الترف. أصابنا الشلل الكلي أمام عسف النظام الذي أحاط نفسه منذ البدء بطفيليين شرهين وتجار عقيدة وجهلة متطرفين أسأؤوا استخدام السلطة التي وضعت بين أيديهم وأحالوا حياة الناس إلى جحيم لا تطاق. وخصوصاً الشباب، الذين دفعوا هم ثمن الفساد والمحسوبية والقمع، دفعوه من أعصابهم ودمهم وعقولهم، عقولهم التي بذلوا جهداً ومالاً كي يرتقوا بها ويحققوا أماني ذويهم، وجدوا أنفسهم مرفوضين ومنبوذين ومضطهدين، اضطهاداً انتهى ببعضهم إلى لملمة أفكاره والانزواء في ركن قصي، جاعلاً من نفسه مطيةً للإحساس بالغربة وهو مقيم بين أهله وقومه فيما أخذ بعضهم الآخر بالهروب نحو المجهول.

تجولت في شـوارع دمشق الجميلة الساحرة التي شهدت أعظم وأرقى حضارات الأرض، فمن هنا مرّ الفينيقيون والمصريون والآشوريون والبابليون والفرس واليونانيون والرومان والعرب. ركام حضاري قلّ أن يوجد له مثيل في أي بلد آخر، فأكسبها تميزاً عبقرياً جعل منها قبلة للمؤرخين وعلماء الآثار والباحثين في مجال الفن والأدب واللغات والأديان. زرت المسجد الأموي وسوق الحميدية، وشاهدت عدداً من الأفلام العربية والسورية بسينما الشام، ثم سافرت إلى اللاذقية واستأجرت شاليه قرب البحر حيث استمتعت بالسباحة لأول مرة في البحر المتوسط، كما استمتعت بها منذ سنين خلت في البحر الأحمر، الذي يقوم على ساحله ميناء بلادي الذي شيَّده الإنكليز وتواصلت رحلاتي وتنقلاتي المثيرة. زرت مدينة حلب العريقة، حيث الأسواق والكنائس والمساجد والقلاع التي تفوح منها رائحة التاريخ، قضيت يومين كنت خلالهما نزيلاً بفندق السلام حيث صادقت سياحاً ألماناً ومجموعة من الشباب الجزائريين الذين توجّست خيفة من لحاهم وهيئتهم الجبلية التي تشي بانتمائهم إلى الأصولية المتطرفة، ما الذي جاء بهم إلى هذه المدينة الجميلة، هل يريدون تحويلها إلى مستنقع للموت كما فعلوا ببلادهم؟ أخذت أتجنبهم إلى أن غادرت المدينة. كانت متعة لم أعشها من قبل؛ فبالإضافة إلى ما شاهدته من مناطق تاريخية وأثرية، كانت هنالك الطبيعة الخلابة التي كنا نستمتع بمشاهدتها أثناء مرور الباص: الجبال الخضراء والوديان التي تنحدر إلى البحر، حقول الكروم والزيتون والقمح والشعير والكرز والخوخ

بجميع أنواعه، أشجار صنوبر عملاقة مبعثرة في برارٍ لا متناهية، قرى ومدن فوقنا وتحتنا ترقد بسلام وطمأنينة فوق الجبال بكنائسها ومساجدها وأسواقها ومدارسها ومتنزهاتها. وتذكرت بأسى الرحلات التي قمت بها داخل بلادي، حيث يقطع بنا القطار أميالاً وأميالاً دون أن تقع أعيننا على كائن حيّ سوى أشجار الصبّار التي تقف شاهداً على الجفاف وبخل السماء بقطرة ماء، أو نرى عقباناً تنهش دابّة نافقة، خلاف ذلك فلا شيء سوى امتداد أراض جرداء جدباء تعانق السماء في الأفق البعيد!

وختمت رحلاتي بزيارة تدمر المجيدة، التي تصخب بكل جماليات الحضارات السريانية واليونانية والفارسية، من هنا انطلقت زنوبيا الفاتنة، بأسنانها اللؤلئية وثوبها الأرجواني الموشّى بالجواهر، والمشدود بحذق إلى خاصرتها، انطلقت وطموحها الذي فاقت به كليوباترا في توسيع إمبراطوريتها الناشئة إلى أن بلغت مصر وآسيا الصغرى وشمالي جزيرة العرب، وما كانت ستوقف زحفها المجيد لولا أن كبحها الرومان واقتادوها إلى روما وهي ترسف في أغلال من الذهب، حيث انتهى بها الأمر زوجة لنبيل روماني. وكثيراً ما تساءلت: لماذا ينتهي دائماً حكم الملكات بتلك الطرائق المأسوية؟ لن تمحى من ذاكرة التاريخ مأساة كليوباترا التي انتحرت بواسطة حيّة في إثر هزيمتها من قبل الرومان، ولا شجرة الدر التي أقصيت عن العرش ثم اغتيلت وألقي بجسمانها من برج القاهرة، ولا ماري انطوانيت التي فصل رأسها عن بدنها على مرأى ممن كانوا بالأمس رعيتها...؟!

# من الصدف تولد الأقدار

كنت منهمكاً في الحديث مع بعض الشبان السوريين عن بلادي بساحة المرجة، كانوا يسألونني وكنت أستغرب وأجيب بدهشة أن الأسود والفيلة والقردة لا تشاركنا في مساكننا والسير في طرقاتنا، وأننا نعيش في مدن تسري فيها الكهرباء وأنابيب المياه، وفيها مدارس وجامعات ومستشفيات ومتاحف ودور عرض وحدائق وفنادق ومطاعم ومقاهٍ وأسواق تأتيها البضاعة من جميع أرجاء العالم. ولكنني أخفيت عنهم أن السواد الأعظم من مواطني بلادي لا يزالون يقدمون المشعوذ على الطبيب، والقبيلة على الوطن، وأعمال السحر على الفنون، واللاهوت الديني على الحرية. كنت أجد لهم العذر فيما ذهب إليه خيالهم لرسم تلك الصورة البدائية عن بلادي، فليسوا هم الوحيدين بين الشعوب العربية الذين يجهلون السودان ونتاج شعبه الإبداعي، قليلون منهم سمعوا بعبقرية التجاني يوسف بشير الشعرية، قليلون منهم عرفوا العلامة النابغة عبدالله الطيب، قليلون عرفوا محجوب والمحجوب كظاهرتين سياسيتين أدبيتين عالميتين، فضلاً عن الرسامين والموسيقيين الذين شقت أعمالهم طريقها إلى

خارج الوطن بجهودهم الذاتية؛ فالعرب لا يهتمون بالسودان إلا حين يأتي الحديث عن المآسي والشقاق والنزاع المسلح والكوارث الطبيعية والتخلف الاقتصادي، فيصبح السودان حالة جديرة بالذكر ودليلاً يضاف إلى مآسي العرب يستخدمه المتحاورون والمتناظرون في سجالاتهم السياسية عبر الفضائيات، خلاف ذلك فلا أحد يتذكر وطناً اسمه السودان، يضاف إلى ذلك التقصير الصارخ لوزارة الثقافة التي ينصرف القائمون على أمرها إلى الشأن السياسي فقط دون الثقافي، والترويج للأنظمة الحاكمة ونجاحاتها المزعومة وتكريس أجهزة الإعلام الحكومية لتضخيم منجزات (الثورة) الوهمية وإضفاء مسحة من العظمة على شخص الرئيس... استقبل... افتتح... سافر... التقى... استنكر... شجب... نادى... نوّه... أعلن... أصدر... وقع... خاطب...!! كل تلك الهالة الزائفة حول شخص الرئيس المأفون فيما المبدعون يقضون يومهم في صراع بائس مع الحياة من أجل توفير لقمة الخبز لأطفالهم، فيضطر معظمهم إلى مغادرة الوطن والوقوع في مستنقع أعمال هامشية لا تمت بأي صلة إلى مواهبهم، التي حباهم إياها الله فتتبدد مهاراتهم وتسحق مواهبهم ثم يطويهم النسيان. ولو أن الدولة أولتهم قليلاً من الدعم وساعدت على الترويج لما ينتجون لما اضطروا إلى الرحيل نحو المجهول، بل كانوا سينعمون بالطمأنينة والاستقرار بين الأهل مع شظف العيش الذي لن يؤثر في عطائهم الفني واستمرارهم في السير في دروب الإبداع، وكان سيعرفهم العالم، وبالتالي سيعرف بلداً اسمه السودان من خلال نتاجه الفني

والأدبي بدلاً من التعرّف إليه من خلال صور المجاعات والحروب الدموية والتصفيات العرقية التي يخجل المرء من النظر إليها حين تبثها الفضائيات العالمية.

وفيما كنت أتابع حديثي عن الفن في السودان سمعت صوتاً يناديني من وراء ظهري، التفت إلى مصدره فإذا به صديقي فيصل إلياس! عرفته للوهلة الأولى رغم فراقنا الذي امتد أكثر من عقد من الزمان، ورغم التغيرات التي طرأت على هيئته، فقد زاد حجمه ومالت بشرته السمراء إلى اصفرار شاحب، وزحف الصلع إلى منتصف رأسه ونما شارباه بكثافة، إجمالاً بدا عليه نضج يفوق عمره الحقيقي بسنوات عديدة. تعانقنا على طريقتنا السودانية التي يكثر فيها تربيت الظهر، والتي أحالت فضول رفاقي السوريين المتطلعين لمعرفة السودان إلى دهشة. جلسنا على النجيل وتحدّثنا كثيراً واستعدنا ذكريات كثيرة، لم يفارق طبعه الهادئ ورزانته التي تصدر الكلمات بميزان الحكماء، أخبرني بأنه كان في عداد الطلاب المعارضين الذين تم فصلهم من جامعة الخرطوم وهو لا يزال بعد في سنته الأولى في مدرسة الرياضيات وقتئذ، وأنه غادر بعد ذلك أرض الوطن متنقلاً من مصر إلى سوريا إلى لبنان ثم إلى سوريا مرة أخرى من أجل إيجاد فرصة سفر إلى دول الغرب، وهو الآن يحاول جاهداً السفر إلى هولندا. ولم يمضِ وقت طويل على جلستنا تلك حتى اقترب منا شاب وحيانا مصافحاً كلّاً منا بيده بادئ الأمر، ثم ما لبث أن اكتسى وجهه بمعالم دهشة مباغتة تلتها

صيحات باسمي وباسم فيصل. كانت صدفة أقرب إلى خطة مرسومة بإحكام...! ثلاثة رفاق افترقوا منذ زمن بعيد ولا يدري أحدهم شيئاً عن الآخر، بل إن أحدهم ظل غائباً تماماً عن خيال الآخر وذاكرته، فإذا بالقدر يجمعهم في متاهة التشرد والضياع ويجعل الذهول يخيم على ثلاثتهم. كان زميلنا طارق، لا أذكر اسمه كاملاً، ولكنني أذكر رفقته في المرحلة الابتدائية ثم اختفاءه بعد ذلك مثل كثيرين من رفاقنا الذين اختفوا في هدوء وغدوا في طيّ النسيان.

عانقناه بشوق حقيقي، فقد أعادنا إلى زمن البراءة والانطلاق دون تحفظ. أخبرنا بأنه مقيم مع ذويه بالسويد، وأنه قد حضر إلى سوريا للإشراف على مكتب للشحن كان قد فتحه أخيراً في دمشق بمشاركة ابن عم له يدعى باذل. بدا متشوقاً وهو يسأل عن أخبار الرفاق. حزن كثيراً وهو يتلقى أخبار بعضهم من الذين لقوا حتفهم أثناء الحرب الدائرة في جنوب الوطن.

وسألني إن كانت بحوزتي تلك الصور التي كنا قد التقطناها معاً في تلك الأيام، ولحسن الحظ كنت قد وضعت في حقيبة السفر الألبوم الذي يحوي الكثير من الصور التي أكن لها أهمية خاصة بداخلي، أو بمعنى أدق: الصور التي لها ذكريات خاصة... ولا سيما الطفولة. مثلما أحمل أشرطة كاسيت للمطربين الذين أحبهم أو أولئك الذين تربطني بهم صداقة، فأقوم بنسخ (أغانينا) وجلساتنا الخاصة على أشرطة كاسيت، لتصحبني بعد ذلك حيثما ذهبت وتصبح جسراً قائماً بيني وبينهم. فرح كلاهما حين علم بوجود تلك الصور بحوزتي. قضينا معاً

ثلاث ساعات، مرت دون أن نشعر بها، واستأذن بعد ذلك طارق بسبب موعد له مع أصدقاء ينتظرونه في أحد المطاعم الدمشقية بعد أن انتزع منّا وعداً بزيارته عند ظهر الغد بمكتبه، أعطانا وصفاً بالمكان ورقم الهاتف ورجاني أن أحضر معي الصور ثم ودعنا وانصرف. وسألني فيصل سؤالاً مباشراً عن خطتي. أجبته بأنني أنوي السفر إلى لبنان ولكنهم رفضوا إعطائي تأشيرة للدخول. ضحك فيصل وهو يقول: (التأشيرات إلى لبنان لا تمنح لأمثالنا) ثم سألني إن كان بحوزتي مال أم لا! وأخبرته أنه بقي بحوزتي ثلاثمائة دولار فقط. قال لي إنه مبلغ كاف لسفري، وبدا متحمساً وهو يطلب مني أن أحضر حقيبة سفري ونقودي غداً عند حضوري إلى مكتب طارق.

أحسست بفرحة غامرة وأنا أتمدد على فراشي بالفندق. سأهاجر إذن إلى باريس الشرق وأستمتع بالجمال والألق اللبناني على الطبيعة.

وجدنا طارق في انتظارنا برفقة ابن عمه باذل الذي استقبلنا ببشاشة وكأنه صديق لنا. واضح أن طارق قد حدثه عنا قبل حضورنا إليه، وفكرت أن صداقات الطفولة تبقى ذات حميمية تفوق تلك التي نكتسبها في الكبر، رغم ما يشوبها من توترات تصل إلى حد العداء بين حين وحين ليس لها مبرر سوى طفولة عقولنا، ولكنها تتحول بمرور الأيام إلى ذكريات وحكايات نستمتع بروايتها لمعارفنا وأصدقائنا الآخرين وحين تجمعنا الصدف بعد فراق طويل. لم تتغير ملامح طارق كثيراً إلا بما اقتضته تبدلات الانتقال من الطفولة إلى الشباب، والتي عند البعض تكون كبيرة جداً، بحيث يعجز المرء عن التعرف

إليهم حين يلتقيهم بعد مدة طويلة. فيما تكون عند البعض الآخر طفيفة فلا تحدث تبدلاً صارخاً. وقد كان طارق من الفئة الأخيرة، بتقاطيع وجهه الحادة وعينيه العسليتين وفمه الذي يبدو كبيراً حين يبتسم أو يضحك وشعره الأسمر المشعّث... شعره بلون بشرته. استعدنا بعض النوادر التي لن تمحى من وجداننا والتي لا يزال أصحابها يعيشون في أرض الوطن، مثل عامر الذي كان أصغر تلاميذ الفصل وأقلهم حجماً وأكثرهم فظاظة، حيث تخصص في خنق القطط والضفادع التي يراد تشريحها في درس العلوم، وعوض الجرّاي الذي كان يراهن التلاميذ على سباق حافلات النقل بين محطة وأخرى فيسبقها ويكسب الرهان، وبشرى العبقري الذي كان يسبق المعلم في حل أكثر المسائل تعقيداً في دروس الرياضيات، أو آدم- أكبر تلاميذ الفصل- الذي كان يجلس في الصف الأخير من الفصل حيث يمارس العادة السرية ويشرب المريسة ويقلد أصوات الحيوانات، قبض عليه المعلم ذات يوم والجالون بين يديه، أخبر المعلم ببساطة وهدوء بأنها وصفة طبية لنظافة الكلى!

تناولنا الطعام وشربنا الشاي وعدنا لمواصلة ما قطعناه من حكايا وقصص الماضي الجميل كما وصفه فيصل الذي لم يخبرنا حينئذ بأنه أصبح شاعراً ولكنني سأعلم بذلك لاحقاً، وفيما كنّا منهمكين في الضحك دخل علينا شاب في حوالى العشرين من عمره، بدا من ملامح وجهه وهيئته النافرة وثيابه كثيرة الألوان أنه قروي، حيّانا وسأل طارق إن كان هنالك (حدا) أم لا! وأجابه الأخير بأن ينتظر قليلاً في الخارج

وبدت على فيصل بوادر قلق، ولاحظ طارق الانقلاب المفاجئ الذي طرأ على مزاج فيصل!

- مالك يا فيصل؟

وبدلاً من أن يجيبه عن سؤاله، أجابه بسؤال إن كان يعرف أبا مصطفى أم لا!

- أتقصد أبا مصطفى المهرب؟

هز فيصل رأسه بالإيجاب وكانت نظراته القلقة لا تزال تنبعث من عينيه.

- إنه في السجن!

ودون أن يبدي طارق اهتماماً بالمفاجأة التي ارتسمت على وجه فيصل في إثر سماعه الخبر واصل يقول:

- لقد اعتاد هو ورجاله تلك الحياة ولا يستطيعون استبدالها بنمط آخر، وغداً سيفرج عنه ليخرج ويمارس العمل نفسه مجدداً ثم رمى فيصل بنظرة مرتابة وسأله:

- لماذا تسأل عن أبي مصطفى؟

تردد فيصل قليلاً ورماني بنظرة سريعة وهو يقول:

- حسام يرغب في السفر إلى لبنان وأنا لا أثق إلا بأبي مصطفى، لقد سافرت وعدت عن طريقه دون أن يصيبني أي أذى.

وتحول طارق إليَّ بكليته يستجوبني عن أسباب سفري إلى لبنان ويرجوني البقاء بسوريا لأنها أكثر أمناً واستقراراً من لبنان الذي يعامل

فيه الغرباء - وخصوصاً السود - كما تعامل الحيوانات، وأن رجال الدرك هناك لا يرحمون من يقع بأيديهم بدون أوراق تثبت قانونية وجوده بأراضيهم، فضلاً عن المعيشة الغالية والرواتب الضئيلة. وأنه سبق وساعد الكثيرين من أبناء جلدته على السفر إلى لبنان ولا يزال يفعل ذلك تحت إلحاحهم ولكن غالباً ما يشعر بالندم والحزن حين يعودون إليه محطمين بسبب ما لقوا من مهانة وإذلال بلبنان، إضافة إلى المآسي التي ذاقوها وهم في طريقهم إلى الفردوس الذي هو على صفحات المجلات فقط ولا وجود له على أرض الواقع.

ظل فيصل يسمع فقط دون أن يقاطعه أو ينبس بكلمة واحدة ليواصل طارق قوله:

- المهربون أولاد قحبة، يتمسكنون هنا أثناء عقد الصفقة ويظهرون عطفهم القروي ولكنهم ما إن يتوغلوا بين الجبال حتى ينقلبوا إلى ذئاب لا تعرف الرحمة !

اعترتني حالة من الإحباط وأنا أسمع تلك الأخبار المؤلمة ولم أقل شيئاً، فيصل هو الذي انبرى يفند حديث طارق معترضاً على ما ذهب إليه بأن المهربين ذئاب وأن اللبنانيين يعاملون الغرباء كما يعاملون الحيوانات:

- ليس كل المهربين كما وصفتهم، ولو التقينا واحداً فقط من رجال أبي مصطفى سيثبت لك عكس ما قلت، أما بخصوص الحياة في لبنان ومعاملة اللبنانيين للغرباء والنظرة غير المتسامحة حيال السود منهم، فكثير من الغرباء حظوا بمعاملة حسنة وعاشوا دون أن يمسهم

سوء إلى أن حالفهم الحظ في الحصول على تأشيرات سفر إلى دول الغرب أو الخليج، وبعضهم جمع حصاد غربته وعاد راضياً إلى بلاده، بل إن بعضهم قد طاب لهم المقام فآثروا الاستقرار على الرحيل، لقد رأيت سودانيين يعيشون منذ الخمسينيات والستينيات في بيروت ومدن أخرى داخل لبنان، شهدوا كل المتغيرات والنزاعات والحروب دون أن يهتز يقينهم في البقاء بلبنان. إنني أرى أن لكل إنسان نصيباً في الحياة يجب أن يناله أكان ذلك في بلاده أم في أي بلد آخر في هذا العالم الفسيح ولكن على المرء أن يجرب، وبما أن صاحبنا أراد أن يجرّب حظه في لبنان فما علينا إلا أن نمد له يد العون والتمنيات القلبية بالنجاح والتوفيق، ومن حديثهما أيقنت أن السفر إلى لبنان في مجمله عبارة عن مغامرة كبرى غاية في الخطورة لأن فرص الفشل فيها أكبر من فرص النجاح. مغامرة الرحلة التي قد تنتهي إلى السجن قبل بلوغ الهدف، ومغامرة الحياة بلبنان حيث تبدو الحياة فيه مغامرة حقيقية.

أخيراً قبلت التحدي وقررت السفر. وما كان لطارق إلا القبول والإذعان لرغبتي. قال وقد بدا حزيناً ومكرهاً:

- الشاب الذي رأيتماه قبل لحظات هو أحد رجال أبي مصطفى، وأنا لا أثق به، لأنني لا أعرفه جيداً، ولذلك لم أود التعامل معه، ثم أخذ يرمقني بعطف ويقول:

- الأمر متروك لك يا حسام، أنت صاحب القرار!

قلت دون تردد متجنباً النظر إليه:

- سأسافر!

# المغامرة

بدأنا سيرنا عند هبوط الظلام، وبعد أن شح الطريق من أرجل المارة، كنا ثلاثة أشخاص عند بدء الرحلة، الشاب القروي الذي إلتقيته بمكتب طارق والذي أحضرني إلى المنزل الذي انطلقنا منه، ورجل آخر يدعى بو محمد وهو في حوالى الأربعين من عمره. أخبرني الشاب أن اسمه ياسر، وأظهر لي من الطيبة والود ما جعلني أشعر حياله بالطمأنينة. بدأنا نسير ببطء وحذر لحظة خروجنا من المنزل، وظللنا نسير هكذا إلى أن توارت بيوت القرية خلف الظلام، حيث اختفت معها الأضواء والأصوات وأزيز السيارات. الطريق التي نسير عليها ضيّقة ومتعرجة، تحفها نباتات وحشائش برية. الطقس شديد الحرارة، مما جعلنا نتصبب عرقاً.

جبال... جبال... جبال! شجر... شجر... شجر! صمت مطبق! حاولت أن أقول شيئاً أكسر به جدار الصمت القائم بيننا نحن الثلاثة، فهمسا لي بأن أصمت. بعدها ظللت صامتاً أتلقى الأوامر وأقوم بتنفيذها دون أن أتفوه بكلمة. بعد حوالى ساعة من السير المتصل، وجدنا أنفسنا أمام رجلين، أحدهما ممسك ببغل. تبادلا التحايا مع بومحمد وياسر

وسلّماهما البغل الذي قفز بو محمد على ظهره فور الإمساك برسنه، فيما أخذ الرجلان بالسير في الطريق نفسها التي أتينا منها بعد أن همسا لنا برحلة موفقة. كانت تلك نقطة البدء الحقيقية إذن. استأنفنا السير في أحراش لا أول لها ولا آخر. الظلام ينبعث من الجبال والشجر، والصمت يطوّقنا من كل ناحية. الضباب الكثيف يحجب السماء فلا نرى قمراً أو نجمة، بل مزيداً من الظلام المخيف. سيرنا صعود وهبوط لا ينتهيان. وفجأة اندفع بو محمد أمامنا بالبغل، وهمس ياسر في أذني أن أجري، فجريت. حقيبة ثيابي تشكل عبئاً ثقيلاً عليّ، ولكنني أظل متشبثاً بها إلى آخر الرحلة. الحر يتصاعد في داخلي فيغرق بدني وتبتل ثيابي بالعرق سأكتشف لاحقاً أن هذه الجبال والأعشاب ستختفي تحت وطأة الجليد خلال فصل الشتاء، وأن عدداً من السودانيين قد ماتوا هنا وتصلبت جثثهم وآخرين أصيبت أقدامهم بالتلف وغدوا مشلولين مدى حياتهم جراء البرد. الحرّ والجري في المنخفض، في المرتفع، في اللاشيء أحياناً، أسقط على الأرض ثم أنهض ثم أسقط، سقطت ونهضت عدّة مرات، أشعر بالغضب والعطش والتعب، أتمنى الجلوس على الأرض ولو دقيقة واحدة ولكن هيهات. شعر الرجلان ببؤسي وإعيائي، وبسرعة قفز بو محمد عن ظهر البغلة على الأرض وطلب مني ركوبها، ترددت فأنا لم أرَ بغلة في حياتي فكيف لي أن أعتلي ظهرها، لم يضيعا ثانية واحدة في انتظاري، أمسكا بي ورفعاني على ظهر البغلة، ودفعاها فسارت بي قليلاً ثم شرعت تعدو فسقطت عن ظهرها إلى الأرض فضحك الرجلان وضحكت معهما ولم أحاول

الركوب عليها مجدداً ولم يطلبا ذلك مني بعد أن أدركا جهلي في التعامل مع الحيوان. أخذا يتبادلانها فيما أنا أعدو خلفهما، إلى أن توقفت البغلة وكان ياسر على ظهرها في تلك اللحظة على تل بين ربوة وجبل. وهتف ياسر: (هذا... لبنان!) وتنفست أنا الصعداء.

أحسست بموجة فرح تجتاحني وأنا أنظر إلى الأضواء تحتنا في امتداد يعانق الأفق المظلم، من هنا إذن انطلق الفينيقيون يعلمون شعوب الأرض الكتابة والملاحة والتجارة والصناعة كأول رسل للمدينة والحضارة. سوف أعيش بين أحفادهم الذين ورثوا عنهم روح الاستكشاف والمغامرة فغدوا رواداً وملاكاً في كل قارات الكرة الأرضية. عاد بومحمد من حيث أتينا بعد أن امتطى البغلة وتمنى لي النجاح والتوفيق بلبنان، فيما هبطنا أنا وياسر من الجبل وأخذنا نسير إلى أن وصلنا إلى عدد من البيوت المبعثرة، بعضها يبدو شديد الارتفاع وبعضها وطيئاً، أخذنا نسير بينها، لا أثر فيها لحياة، لا صوت، لاضوء، لا حركة، كان الوقت لايزال في الساعات الأولى من الفجر. الظلام محكم والحر مهيمن. وصلنا إلى دار صغيرة ووقفنا في مواجهة بوابة مثل تلك التي لمرأب السيارات، حيث طرقها ياسر طرقتين ففتحت على الفور، وقد صدق حدسي كان مرأباً لتصليح السيارات، وكانت امرأة بثياب بدوية تجلس على كرسي ورجل ثلاثيني هو الذي فتح لنا الباب. وعندما خطونا إلى الداخل استطعت أن أتبين وجهيهما رغم ضآلة الضوء المنبعث كما يبدو لي من ضوء الشمعة التي كانت مشتعلة في مؤخرة المحل. كان شاباً وسيماً مربوع القامة قوي البنية، وكانت

هي عشرينية ذات جمال قروي أخاذ. فيما بعد رأيت نظائر لها بكثرة وعلمت بأنهن يدعون (نور) بفتح النون والواو وتسكين الراء لا أدري إن كانوا هم الغجر أو جماعة مشابهة لهم. بادلانا التحايا وطلب ياسر مني أن أجلس فيما كان يشير بيده إلى أريكة ملاصقة للكرسي الذي تجلس عليه الفتاة، واستأذنني بأنه ذاهب لإحضار السيارة التي ستقلني إلى بيروت وأن غيبته لن تطول. أمر الشاب الفتاة بأن تهب لإحضار طعام وماء لي فذهبت على الفور ودون أن تتفوه بأي كلمة. بعد ذلك أخذ السيناريو الغريب يطفو على السطح، أخذت الخطة المحبوكة تكشف عن نفسها. كان الخوف والشك يسيطران عليّ منذ بدء الرحلة، ولكن ليس بيدي ما أفعله سوى افتعال الهدوء والمضي قدماً نحو هدفي. تساؤلات عديدة تقافزت فجأة إلى ذهني، من هؤلاء الناس؟ هل هم عصابة تهريب فقط أم إنهم شيء أكبر من ذلك؟! وجوههم المرتابة تشي بأنهم أكثر من كونهم مهربين. وتذكرت الحوار الذي دار بين طارق وفيصل، الأول تحدث بوضوح عن عدم ثقته بالمهربين، بل وصل به الأمر إلى وصفهم بأبناء قحبة، الثاني زودني بعناوين أصدقائه ببيروت وطلب مني أن أخوض التجربة رغم ما تنطوي عليه من مخاطر، وقد انصعت للثاني، ليس لأن آراءه سليمة، فالتجربة ستكشف لي عن صدق طارق في كل ما وصفهم به وفي كل تحليلاته الدقيقة لوضع الغرباء ومعاناتهم في لبنان، ولكن لأنني أفكر بطريقة فيصل الذي غادر أرض الوطن نتيجة الظروف التي غادرته بها، لا بطريقة طارق الذي خرج من السودان قبل أن يهبط ظلام الإخوان، خرج عزيزاً ليحيا عزيزاً

بين أحضان عائلته المقيمة في السويد، متجنباً المعاناة التي سقط في هوتها أبناء جيله. فيصل يعلم بتلك الحقائق كما يعلم أن لكل مغامرة ثمنها، وأننا نحن الجيل الذي اصطدم بما أسماه أصحابه بـ(الإنقاذ الوطني) كان علينا أن ندفع ثمن رفض ما حدث وما سيحدث غالياً.
كان ثمة خياران: الانحباس في نفقهم المظلم دون أمل أو المجهول والبقية تأتي. كنت مهيأً نفسياً لتلك المغامرة ولكل ما حدث في إثرها في حياتي بعد ذلك لأنه لم يكن لديّ بديل ألجأ إليه... تماماً مثل الملايين الذين فروا من أرض الوطن من قبلي والملايين الأخرى التي تسعى حالياً إلى الفرار والملايين القادمة لأجيال عديدة قادمة، وطن أصبح طارداً ومهيناً لرجاله ونسائه على السواء، لا أحد يشعر فيه بالأمان على نفسه وزوجه وولده! لقد دفع اليأس بالبعض إلى التسلل إلى إسرائيل، إلى البلد الذي علمونا في بيوتنا ومدارسنا أنه عدو الأمة ومغتصب أرض شعبنا الفلسطيني ومزعزع أمن أشقائنا في مصر وبلاد الشام، الآن صار مقصداً لبعض من تقطعت بهم سبل الحياة، ظناً منهم أنه واحة تقيهم المحرقة التي أقامها لهم سفّاحو السلطة في بلادهم المغتصبة، بلا أسف على وطن أجبرهم على الفرار إلى حضن العدو!!

رأيت رجلاً يسحب باب المرأب إلى أسفل ويغلقه بواسطة قفل لنصبح أنا وهو وجهاً لوجه بالداخل. المسحة الشريرة أخذت تتجسد بوضوح في تقاطيع وجهه، وخصوصاً حين طلب مني أن أقف وأتبعه، تبعته إلى مؤخرة المحل حيث وقف برهة ينظر إليّ وقد أتاح لي ضوء الشمعة التي بتنا على مقربة منها أن أتبين جيداً ملامحه الشريرة التي

تراكمت عليها آثار الجرائم والعنف. هو يريد بي شراً الآن، تبدد الخوف من وجداني، وبت أفكر في المقاومة، ولكن يجب أن أعرف أولاً أي نوع من المصائب ينوي إنزالها بي، قتلي؟... ما الذي يفيده قتلي؟ فجأة وبسرعة غير متخيلة تمر بذاكرتي جرائم الخطف والقتل التي ارتكبت من أجل بيع الأعضاء البشرية. كنت أفوقه طولاً وحجماً، وقررت أن أقاومه بشراسة إذا حاول توجيه ضربة إليّ، حتى لو دعا الأمر إلى قتله فسأفعل من أجل الحفاظ على حياتي.

- ماذا تريد؟ سألته.

ويبدو أنه قد لاحظ التصميم على الدفاع عن نفسي يطغى على الخوف في قسمات وجهي!

- شوف يا خيي، ما بدنا نأذيك، تعطينا شو معك من مصاري ناخذك سالم عند اخواتك ببيروت أما إذا بدّك تعمل حالك بطل راح نقتلك ونرميك لكلاب الجبل لا حدا شاف ولا حدا سمع!

وتنفست الصعداء. فالهدف هو الفلوس إذن وليس أنا. كنت قد وضعت ورقة من فئة المائة دولار وبعض الأوراق النقدية السورية في محفظة نقودي وورقتين أخريين أيضاً من فئة المائة دولار وضعتهما أسفل باطن قدميّ ولبست فوقهما الجوارب والحذاء رجاء ألا أفقد كل نقودي في حال غدر بي هؤلاء الأوغاد، لم أقل شيئاً ولم أبدِ اعتراضاً، أخرجت محفظة النقود من جيبي ومددتها إليه و أنا أرمقه بمزيج من الاحتقار والغضب، تناولها وفتحها وفضّ ما بها من أوراق فلم يجد سوى المائة دولار والأوراق النقدية السورية.

- هذا كل الـ معك؟

هززت رأسي بالإيجاب، ولكنه أخذ يرميني بنظرات هي مزيج من الشك والوعيد!

- لا تفكر أني هون لحالي، بدّك تطلع كل الفلوس الـ معك أو تتركني أفتشك!

راودتني فكرة الانقضاض عليه بلكمة تفقده وعيه ثم الفرار بعيداً عن هذا المكان الشرير، ولكن هجس في نفسي سؤال: (إلى أين سأذهب بعد ذلك؟) فأنا لا أعرف أين أنا الآن، كل ما أعرفه أنني في ضيعة داخل الأراضي اللبنانية بعد أن تجاوزنا الحدود مع سورية بقليل، ولكن ما اسم الضيعة وفي أي إقليم لا أعلم يا لها من ورطة!

- هذا كل ما أملك ولكن إذا لم تصدقني فهيا تقدم وفتشني!

أحسست بالمهانة ويدا هذا الوغد تجوبان أرجاء بدني وتتحسسان مناطقي المحرمة؛ عاودني مرة ثانية الإحساس بالاحتقار لنفسي والعالم أجمع. ترى كم عدد الأشخاص الذين مروا بهذه التجربة المذلة قبلي؟ وكيف كانت ردة فعلهم، هل وقفوا كالأصنام وتركوا أيديهم القذرة تعبث بأجسادهم كما هي حالي الآن؟ أم أنهم قاوموهم بكل كبرياء وإباء وليكن ما يكن؟ يكون الموت والرمي في سفح الجبل طعاماً للعقبان، ذلك هو المصير الذي ينتظر كل من سولت له نفسه المقاومة! إنهم مجرمون ولا يتورعون عن ارتكاب أفظع الأعمال لتحقيق مبتغاهم؛ فآثار الجريمة متراكمة على وجوههم كما تتراكم الأوساخ في مرمى الأوساخ!

من حسن طالعي أن عبرت يداه بباطن قدمي دون أن تحسا بالورقتين النقديتين. اعتدل في وقفته ورماني بنظرة متشككة وهو يطلب مني انتعال حذائي والعودة للجلوس حيث كنت. تبعني هو وأعاد فتح الباب بينما جلست أنا على الأريكة محاولاً ما استطعت إخفاء غبطتي. ولم تمض بضع دقائق حتى عادت الفتاة وفي يدها لفافة ورق وقنينة ماء وقدمتهما لي وكأنها لم تدر بما حدث، تمنعت عن أخذهما، فيما أقسم علي الرجل أن آخذهما ففعلت، فضضت لفافة الورق فوجدت داخلها سندويش فلافل. وفي اللحظة التي هممت بقضمه سمعت صوت سيارة تتوقف، عقبها دخول ياسر، حيّانا وطلب مني حمل حقيبتي ومواصلة الأكل في السيارة التي جلبها ليأخذني بها إلى بيروت. داعبتني فرحة لا أدري مبعثها ربما لكوني نجوت من ذلك الوكر المخيف، فرحت رغم ما أنا مقبل عليه من مجهول ربما يكون أسوأ بكثير مما قد حدث!! وفيما كنت أدنو من السيارة التي بدت لي يابانية ماركة تويوتا، رأيت شاباً يجلس على مقعد القيادة، وعندما ركبت فوجئت بشابين آخرين داخل السيارة أحدهما على المقعد الأمامي في جوار السائق، والآخر في المعقد الخلفي حيث انضم إلينا ياسر فصرت وسطهما وانطلقت بنا السيارة على الفور وكأنهم متوجسون من أمر ما، ظلوا صامتين إلى أن توغلت بنا السيارة في طريق ضيقة بين الجبال، وفجأة وبلا مقدمات سمعت ياسر يقول لي:

– هات الفلوس!

يا للفليم الأميركي الذي لا يريد الانتهاء.وأدركت حينئذ أن الشاب الذي قام بتفتيشي في المرأب فعل ذلك من دون علمهم، أي إنه قد خان الأمانة التي أودعت لديه وأحسست للمرة الثانية بمهانة أشد وطأة على نفسي من الأولى، أحسست بأني فريسة ضعيفة مستسلمة للوحوش التي شرعت تنهشها دون رحمة ودون أن تبدي هي أي مقاومة، وأنا الذي كنت مزهواً بشجاعتي وجرأتي، الآن تبخرت كل معاني الشجاعة ولم يبق بداخلي سوى الإحساس بالضعف والذل والسذاجة أمام هذه الذئاب الماكرة.

- لقد اتفقنا بأن أسلمك المبلغ المتفق عليه بعد إيصالي إلى النادي السوداني ببيروت.

سمعتهم جميعاً يقهقهون بسخرية، وأحسست بيد ياسر تنزلق في جيب بنطالي الأيمن وتجوب ثم تنتقل إلى الأيسر، وعندما لم يجد شيئاً، مد يده وانتزع حقيبة الثياب من بين يدي فأفلتها دون مقاومة، قام بنبش الثياب والأوراق والعناوين التي زودني بها فيصل بدمشق قبل أن أغادر في هذه الرحلة المشؤومة، لم يجد فيها سوى الأشياء التي ذكرتها، صاح بعصبية:

- بإمكاني أن أقضي عليك وأرمي بجثتك هنا للكواسر!

لم أستجب له. وقال الشاب الذي يقود السيارة بصوت متوعد:

- بدك تطلع الفلوس ولّا لا ؟!

قلت دون أن أبدي اكتراثاً للهجته المتوعدة:

- لا أملك فلوساً الآن!

بعد ذلك صمتوا جميعاً ولم ينبس أحدهم بكلمة واحدة. أخافني صمتهم. الصمت دائماً جميل ولكن عند الكتّاب والفنانين وليس المجرمين، فصمت الشاعر يفضي إلى قصيدة، وصمت القاص يفضي إلى قصة، وصمت الموسيقي يفضي إلى لحن، وصمت الرسام يفضي إلى لوحة! وتذكرت بعض ما كتبه صديقي الرسام عن صمت حبيبته: (في صمتك صخب ألوان يجعل اللوحة تتخبط بين الانطباعية والتجريد...في صمتك هدوء ألـوان يبعثر اللوحة بين الواقعية والرمزية...في صمتك حوار ألوان يجعل اللوحة حائرة بين الشفق والبحر والصحراء... في صمتك همس ألوان يمنح اللوحة غموضها الضروري...في صمتك قوة مغنطيسية تجذب الفراشة إلى الوردة وتبرم صلحاً بين الماء والنار وتقيم حواراً بين البحر والقمر والفيروز والنرجس... في صمتك تربض قصيدة حب منذ ملايين الأعوام دون أن يقرأها أحد ويختبئ سر منذ ملايين الأعوام دون أن يكتشفه أحد... في صمتك جسر ممتد بين الأبدية والأزل وخيط حنان يصل الفصول الأربعة بعضها ببعض ونفحة مسك وصندل...في صمتك بزوغ فجر وهديل حمائم وهدير مياه وشدو شحارير وسمفونية تربّعت على عرش الجمال والخلود...صمتك فسيفساء جمعت بين كل عناصر التناغم البديع...!)، وأما صمت المجرم فيفضي إلى جريمة، الدقائق التالية ستؤكد ما ذهب إليه خيالي المتعب، فقد زاد الشاب السائق من

سرعة السيارة صعوداً. الظلام ونعيق السيارة وانعدام أي أثر للحياة في المساحات التي طويناها كل تلك الأشياء مجتمعة رفعت من حدة توتري وخوفي. وفجأة أوقف الشاب السيارة ثم نزل ثلاثتهم وأمروني بالنزول ففعلت، أمروني بالسير أمامهم فسرت متعثراً بين الصخور والشجيرات الصغيرة المنتشرة في المكان يتناهى إلى أذني أزيز طائرة تمر فوقنا ممزقة الصمت الموحش. بعد دقائق من الصمت المضطرب صاح السائق الذي كان يتزعمهم في تلك اللحظات، صيحة قمندان في طابور عسكري، يأمرني أن أتوقف فتوقفت، تقدم ثلاثتهم نحوي ووقفوا قريباً جداً مني إلى أن كادوا يلامسونني، أضاء ياسر مصباحاً كهربائياً وطلب مني أن أنظر إلى حيث أشار بضوء المصباح فإذا بي أقف على شفا هاوية بلا قرار. واجتاحتني موجة خوف جعلتني أرتعد، قلبي يضرب بقوة ويكاد يقفز من بين أضلعي، جذبني قائدهم وشدني من قميصي بخشونة وهو يقول كلمات مهدداً ومطمئناً لي في الوقت نفسه:

- ما راح يصير لك شر إذا طلعت الفلوس الـ معك، أما إذا بدّك تتذاكى علينا راح تكون نهايتك في قعر هذي الهاوية ولا من شاف ولا من دري.

لم أعقّب على قوله كلمة واحدة وبأنفاسي المتلاحقة ويديّ المرتجفتين خلعت حذائي وجواربي فسقطت الورقتان النقديتان من فئة المئة دولار على الأرض حيث رأوهما على ضوء المصباح!

- هذا كل الـ معك؟

قلت ولا تزال أنفاسي تتلاحق، أرتجف، صدري يصعد ويهبط:

- الشاب صاحب المرأب أخذ من محفظة نقودي مئة دولار وثلاثمائة ليرة سورية! وما إن سمعوا ذلك حتى أخذوا يسبونه بأقذع العبارات، ولو أنه كان حاضراً في تلك اللحظة لقذفوا به إلى سحيق تلك الهاوية المخيفة.

- ابق هنا لا تتحرك من مكانك سنعود إليك بعد دقائق.

وركض ثلاثتهم نحو السيارة، وفيما يشبه سرعة القطط ركبها ثلاثتهم وانطلقوا مبتعدين عن المكان بينما بقيت أنا وحيداً في ذلك المكان الموحش، مأخوذاً بصدمة ما حدث خلال الدقائق الفائتة!

# شبيه عمر شريف

كنت منهمكاً بتنظيف المدخل حين حيتني مدام هبة الصراف التي حضرت تواً من الخارج. انتظرتها كعادتي إلى أن مرت أمامي ثم أخذت أرمق من القفا الهالة الجسدية الفخيمة التي يفوح من نواصيها العطر. عالمي يضيق ويتسع ويتبعثر لحظة مرورها أمامي بقامتها الفارعة وجسدها الممتلئ. القدمان الصغيرتان والساقان الممتلئتان والوركان الوارفان في تناسق مع المؤخرة المستديرة الرجراجة. كانت تشعل كل حواسي ورغباتي الدفينة بجسدها المثير ونظراتها المغناج وصوتها الناعم ذي النداءات السرية. كنت أنتظر خادمتها الفلبينية تسألني كي أساعدها على حمل الأشياء من سيارتها الكاديلاك الفخمة إلى شقتها الأكثر فخامة حتى يتسنى لي رؤيتها في ثيابها البيتية الشفافة المتكسرة على جسدها البض، مظهرة تكوراتها الجهنمية التي تجعل أعماقي تصرخ اشتهاء ورغبة، كنت أرهبها دون أن أعلم سبباً واضحاً لتلك الرهبة، هل هي بسبب الفخامة التي تغرق في محيطها، والتي تبدو معها كإمبراطورة يابانية، أم هو جمالها الخارق الذي يضج بالمفاتن؟! وكانت تعلم أنني أرهبها وأحاول الإفلات من براثن سطوتها المهيمنة.

أريد أن أعيش في هامشها فقط لا مركزها، أريد أن أختلس النظر إليها دون أن تراني، أريد أن أظل طافياً على سطحها فقط دون أن تجذبني إلى عمقها. ولكنها كانت تسحبني بقوة سحرية نحو عالمها غير المحتمل، عالمها الذكي الأحمق المنفلت من براثن الزمن.

ذات يوم دفعت خادمتها إلى المبيت خارج الشقة وطلبت مني عبر الأنترفون أن أصعد إليها. وجدت الباب مفتوحاً، ترددت في الدخول ولكنني سمعتها تناديني باسمي وتطلب مني الدخول، ففعلت وأغلقت الباب خلفي. وجدتها جالسة بقاعة الزوار تحيط بها هالة من الجمال والأبهة.

- أقعد يا حسام خلينا نحكي شوي!

صعقتني المفاجأة، تصاعد ارتباكي وأدركت هي ما يعتريني من توتر ورهبة فأردفت قائلة:

- لا تخاف بدي ياك تحكيلي عن بلدك!

بدت شديدة الرّقة وهي تقول ذلك، الابتسامة العذبة التي كشفت عن أسنانها البيضاء المنتظمة في فمها، والعطف والحنان المختلجان في نبرة صوتها، ومع ذلك ظللت مسمراً في مكاني دون أن تخف حدة توتري وارتباكي.

- إذا ما جلست أنا رح إزعل منك!

قالتها بدلال يقرب إلى الغنج هذه المرة. جلست على مقعد مقابل لها. عيناي مخفوضتان إلى الأرض متجنباً النظر إليها.

- شو بتحب تشرب؟

قلت ولا أزال أنظر إلى الأرض:

- لا شيء!

أحسست بصوتي يتلعثم وأنا أنطق بتلك العبارة الموجزة فيما جاءني صوتها أكثر دلالاً وغنجاً مما كان عليه قبل ثوان:

- مو معقول ما بصير هيك!

قالت ذلك وهبت واقفة وسارت عبر ممر لا أدري إلى أين سيأخذها. لحظات من القلق والتوتر، رأسي كاد ينفجر من كثرة ما ازدحمت فيه التساؤلات. من أنا كي تطلب مني هذه المرأة الفخيمة أن أجالسها وأحادثها خارج نطاق العمل...بل أشرب معها...! أنا مجرد ناطور، أسود في نظر اللبنانيين رغم بشرتي الحنطية التي كانت زميلاتي في الجامعة يتغزلن بها. أنا الذي أكنس الأرض التي يمشون عليها وألبي طلباتهم وأحرس بناياتهم من اللصوص والشحاذين والمتطلبين! ماذا تريد مني هذه المرأة البوهيمية ذات الجمال الإمبراطوري؟ وأحسست بوقع قدميها وهي عائدة.

- بدي ياك تشاركني الشرب الليلة!

لمحتها تحمل زجاجة ملأى بسائل قاني اللون وكوبين مخصّرين بقاع كل منهما بضع مكعبات من الثلج. في السودان كنت أشرب العرق سراً، وفي سوريا شربت الويسكي والفودكا لأول مرة، ولا أدري ما أنا مقدم على شرابه الليلة. قررت في دخيلة نفسي أن أكون رهن إشارتها طوعاً لكل رغباتها. تعلمت من كتب التاريخ، أنه ما من ملكة أو أميرة

أو نبيلة إلا وكان لها حياة سرية، فلأكن أنا قطب حياتها السرية! صبت كأساً ومدتها إليّ:

- اتفضل خذ الكأس يا حسام.

تناولت من يدها الحريرية البيضاء المنمقة ومطلية الأظفار كأسي ووضعتها على الطاولة أمامي. فيما جلست هي على مقعدها وهي تحتضن كأسها بكلتا يديها. لحظات من الصمت تمر، تعقبها هي بجرعة وتضع كأسها على طاولة صغيرة أمامها ثم تخرج سيجارة من علبة الكانت وتشعلها، الدخان ينطلق من فمها فيصنع سحابة شفافة بيني وبينها:

- إشرب يا حسام، ألا تحب الكونياك؟

صوتها يقرب من المناغاة هذه المرة، مشبع بالرهافة والدلال، مما شجّعني على القولِ بطريقة تطغى عليها الدعابة:

- الخمور كلها لها الطعم نفسه!

ضحكت هي ضحكة يغلب عليها الغنج هذه المرة:

- هذا غير صحيح!

قالتها بطريقة الخبير العارف المتمرس الواثق بما يقول، ثم طلبت مني أن أتناول كأسي:

- هي إشرب وجرّب هذا وقارنه بما كنت تشرب!

ورفعت كأسي إلى فمي ثم شربتها في جرعتين متتاليتين. قهقهت هي بضحكة ليس فيها غنج أو دلال هذه المرة، ضحكة صادقة خالية من أي افتعال:

- شو... شريب مبين!

اغتصبت ابتسامة دون أن أنبس بحرف. وسألتني بعد أن احتست جرعة من كأسها ومصّت شفتيها الورديتين بتلذذ حرك جذور رغبتي التي طغى عليها توتري وارتباكي:

- هل سبق لك أن شربت الكونياك!

حركاتها بدت أكثر عفوية، تخرج الكلمات من فمها ببساطة لا مراء فيها ومن دون أي تصنّع. ولا أدري إن كان ذلك بسبب الخمر أم أنه طبعها الحقيقي أم أنها أحسّت حيالي بالألفة. اختفت عن هيئتها الهالة الإمبراطورية، وبقيت أمامي امرأة جميلة عذبة أنيسة. ذهبت عني كل مشاعر الخوف والارتباك وبقيت في داخلي سعادة غامرة نابعة من وجودي وحديثي مع امرأة فاتنة حلوة الروح والحديث.

- لا... هذه هي المرة الأولى في حياتي.

ثم مفتعلاً الضحك قلت:

- أهذا هو الكونياك؟

قهقهت بضحكة عالية ارتجّ من خلالها صدرها الناهد المرفوع بحمالة الصدر، وقالت:

- إي... هذا كونياك!

واغتنمت فرصة تشاغلها بإشعال سيجارة وأخذت أطوف بعيني في أرجاء الشّقة ذات الطلاء السماوي اللون، بالرغم من أنني دخلتها عدة مرات إلا أنها بدت لي وكأنني أدخلها لأول مرة. لوحات أطرها بلون الجدران، معظمها لمناظر من الريف اللبناني... الجبال وأشجار

الأرز السامقة وحقول الكروم والتفاح والزيتون...والبحر وقوارب الصيادين. تحف وأيقونات بدت لي من الكريستال والعاج والقيشاني. مقاعد وثيرة رخوة، ستائر زرقاء موشاة بحرير أبيض، والسجاجيد العجمية تغطي الأرض. ثم عدت أنظر إليها هي، هي التحفة الأهم والأثمن بين كل ما وقعت عليه عيناي من تحف ونفائس، تحفة أصيلة تعجز أعمال فيدياس وبيجال وإلهات الجمال الأسطوريات عن الصمود أمام عبقرية جمالها. وتلاقت أعيننا. كانت تذوب رقة وهي تحتسي كأسها فيما يتسرّب بقايا دخان السيجارة من أنفها الجميل. أطلقت ضحكة سكرى وهي تقول:

- شو... ما بدك تحكيلي عن بلدك؟

قلت لها وأنا أنظر إلى صدرها الممتلئ المكشوف عند الوسط مظهراً الفجوة الجهنمية بين النهدين.

- شو بدك تعرفي عن بلدي؟

قالت بسرعة وكأن السؤال حاضر في ذهنها قبل مجيئي إليها:

- الناطور اللي كان هون قبل منّك كان سوداني بس كان فاحم السواد منو حنطي متلك، بس كان يحكي عربي منيح متلك بالضبط!

وأجبتها بمثل اندفاعتها نفسها، فقد كانت كلماتي حاضرة في ذهني من كثرة ما رددتها منذ أن قدمت إلى سوريا ثم إلى لبنان من بعد!

- هذه هي صورة بلادي الحقيقية، صورة مصغرة للقارة الإفريقية، تجمع كل الألوان والأعراق والأديان واللغات والأساطير!

بدت عليها الدهشة وهي تقول:

- أنت تحكي حواديت!

صوتها يشي بعدم تصديقها ما قلت. قلت لها وأنا أتأمل روبها الأرجواني المنسجم مع لون شفتيها الورديتين:

- إنني أصدقك القول، فمثل ما حدث هنا في لبنان من تمازج لأعراق شتى بسبب الغزو والهجرة والنزوح، حدث أيضاً في بلادي.

رأيت بؤبؤي عينيها الجميلتين الوادعتين يقومان بحركة نصف دائرية حين أضفت قائلاً:

- فأنت على سبيل المثال لك شعر عربي وعينان إغريقيتان وأنف تركي وفم أرمني وبشرة شركسية اللون!

واكتفيت بذلك ولم أهبط لوصف جسدها حتى لا أبدو في عينيها وقحاً. وقالت هي متضاحكة:

- شو هاي الحكي؟

كنت أعلم أن حديثي يبدو لها مثل شطحات الشعراء، ولكنني إلى حد بعيد كنت أعني ما أقول.

- نعم! فمثلما استباح الغزاة الفاتحون مدنكم، استباحوا مدننا. ولو أنهم فعلوا ما فعلوه بالنساء وفقاً لرضاهن لنتج من ذلك التلاقح سلالات أكثر ذكاء وجمالاً وتسامحاً... تفيض محبة وإنسانية، ولكنهم أخذوهن ببربرية ووحشية فكانت الكراهية والحروب التي تتلظى في جحيمها البشرية الآن!

- أي بلد استعمر بلادكم بخلاف المصريين؟

قلت لها وأنا أشعر بالغيظ الذي حاولت جاهداً إخفاءه:

- المصريون لم يستعمروا بلادنا في يوم ما، إنما الغزاة هم الذين استعملوا المصريين وطاقات مصر لغزو بلادنا!

ابتسمت بمرح كما لو أرادت تلطيف حدة انفعالي الذي عجزت عن كبحه كما يبدو.

- مثقف مبين عليك!

قلت متصنعاً التواضع:

- هذا تاريخ بلدي وهل من أحد يجهل تاريخ بلاده؟

ومع نشوة الخمر ودفق الأحاديث اعترفت لي أن أمها حفيدة لجارية شركسية من أذربيجان كان قد اشتراها جدّها من ميناء بيروت ثم أخذها إلى النبطية حيث تزوجها وأنجب منها بنيناً وبنات. وداخلني شعور بالغبطة وأنا أسمع منها ذلك الاعتراف الجريء.

قلت لها مجارياً اعترافها:

- وأنا نتاج لتلاقح مصري سوداني، فأمي سليلة لعائلة قبطية نزحت من قرية نقادة الصعيدية من أجل التبشير أيام كان السودان ومصر في قبضة الإنكليز، وأبي من قبيلة الجعليين التي يزعم أفرادها أن جدّهم هو العباس بن عبد المطلب عم النبي الكريم(ص)، إذن أنا مصري عربي سوداني مسيحي مسلم!

قلت وأنا أتأمل روبها الأرجواني المجعد عند منطقة الخصر وما

بين الفخذين، محاولاً الابتعاد عن حكايا الأجناس فإذا بي أخوض في لججها نحو الأعمق:

- هل تعلمين أن الفضل في اكتشاف اللون الأرجواني يعود إلى ملكة هيلين وليس الفينيقيين كما يدّعي المؤرخون اللبنانيون!

- بالله!

واصلت قائلاً:

- يُروى أن الملكة هيلين ذهبت في نزهة إلى شاطئ البحر بطروادة فالتهم كلبها صدفة الموركس فانقلب لون فكه إلى اللون الأرجواني فأعجبها ذلك التحول الغريب الذي أثار دهشتها، واشترطت على من يريد حظوة لديها أن يقدم لها ثوباً مصبوغاً بالأرجوان. ومنذ تلك اللحظة أخذت صناعة صبغة الأرجوان في انتشار حيث بلغت ذروتها أيام مجد الفينيقيين، ولكنها ظلت حكراً على طبقة الملوك والنبلاء فقط لا غيرهم.

قلت لها ذلك دون أن أذكر عبارة: (تقول الأسطورة) لأن الحقيقة التاريخية المؤكدة هي أن صناعة الأرجوان قد راجت وانتشرت بفضل الفينيقيين الذين اتخذوا منها حرفة فأتقنوا صناعتها. ويبدو أنني تجاوزت الحدّ في إمعان النظر إليها، فاعتدلت في جلستها وشدت ثوبها نحو فتحة الصدر مغطية الفجوة بين تكويرتي نهديها المنتصبين. يا لها من امرأة تضج مفاتن وأنوثة، تصلي من ينظر إليها بنيران الشهوة. سأترك لها دفة القيادة إلى أن ترسو بنا سفينة الرغبة في مرفأها الأخير. أشتهيها بضراوة ولكنني لا أستطيع أن آخذ بزمام المبادرة، بل لا أستطيع

أن أظهر لها رغبتي المتأججة حيالها. فمثلها كثير، غامضات وعصيات على الفهم. نساء جمعن بين الجمال والثراء، غريبات الأطوار لدرجة يوصفن معها بالسادية. يظهرن رغبتهن لمن حولهن من رجال، وما أن يحاول أحدهم اغتنام الفرصة حتى يقابل برفض مصحوب بكلمات السب والاحتقار ، متكبرات لا يهمهن سوى شد انتباه من هم حولهن، يبادرن ببدء العلاقة ويوقعن أهم وأوسم الرجال في حبائل حبهن ثم يحطمن قلوبهم بلا رحمة، لكأنهم أدوات من أجل تسليتهن فقط لا أكثر. وخصوصاً اللاتي حظين بأزواج لا يجيدون سوى حصد المال فيما يعجز أحدهم عن تحريك بركة المشاعر الكامنة في أعماق زوجته، فتضطر هي إلى البحث عن مسلّ. لقد مررت كثيراً بهذا النوع، وجميعهن بادرن إلى مغازلتي بالكلمات نفسها:

- أنت تذكرني بعمر الشريف في أفلامه القديمة!

كلهن يقلن لي ذلك بطرائق مختلفة، ثم يبدأ التعارف الذي تعقبه اللقاءات ثم المناورات غير مضمونة العواقب، لأكتشف أن معظمهن لا يرغبن سوى في الخروج عن روتين الزوج مع رجل آخر يحسسن بانجذاب حياله دون نية ارتكاب ما يخل بشرفهن وشرف أزواجهن.

الوحيدة التي أطلقت لي العنان لأفعل بجسدها ما أشاء كانت (إيرين جعفر) زوجة رجل الأعمال المعروف الذي كان يقضي معظم العام في أسفار لا تنتهي. ولكنني لن أنسى مطلقاً تلك الصفعة التي تلقيتها من (سها خليل) حين ملت إليها لأقبلها، أو الركلة العنيفة بين فخذي حين أخذت (هالة أنور) من خصرها لمداعبتها أو (لينا جميل)

التي بصقت على وجهي حين طلبت منها مشاركتي في الاستحمام رغم أنني أقسمت لها بأن لا أفعل شيئاً دون رضاها.

- أنت شبهو لعمر شريف!!

قالتها مدام هبة ببساطة وعفوية فيما كانت تغير وضع جلستها وتضع ساقاً فوق أخرى، دون أن تعلم أنها تطلق شرارة في هشيم. أصمت أنا وتشعل هي سيجارة وتملأ الفراغ بيني وبينها بسحب من الدخان. أتساءل في داخلي: (هل قولها هذا مدخل لحميمية محتملة، أم أنها ترسم خط النهاية مثلما فعلت لينا وهالة وسها من قبل). لم أقل لها: «سمعت ذلك من قبل» ولم أظهر تشاؤمي من قولها، اكتفيت بالقول:

- هذا من لطفك.

مرت لحظات من الصمت دون أن يقول أحدنا شيئاً، وكأنها أرادت كسر حاجز الصمت الذي خيم بيننا لأول مرة منذ بدء جلستنا، سألتني فيما كانت تصب لي كأساً:

- انت بتحبوا لـ عمر شريف؟

فكرت قليلاً قبل أن أجيبها:

- في بعض أدواره.

قالت وهي تمدّ لي كأسي:

- مثلاً؟

أجبتها وأنا أتناول منها الكأس:

- كان رائعاً في دور دكتور تشيفاغو.

ضحكت بغنج وهي تقول:

- يا رومنسي إنت !

ثم أضافت وكأنها تتحداني:

- ولكنه كان أروع حين شارك فاتن حمامة في بطولة فيلم (نهر الحب)...

وأطلقت ضحكة أكثر تغنجاً من ضحكتها وقلت:

- ولكن هذا الفيلم بالذات كان أكثر رومنسية من دكتور تشيفاغو !

قالت وقد اكتست ملامحها بثوب الجدية:

- ما أثار إعجابي ليس رومنسية القصة أو مجريات الفيلم، فثمة عناصر عديدة تساهم في خلق فيلم جيد، وقد كان واضحاً أن عناصر فيلم نهر الحب كانت ضعيفة قياساً على تلك التي تمتع بها فيلم «حب» الهوليوودي الذي لعب دور بطولته النجمان العالميان غريتا غاربو وجون غيلبرت، والفيلمان قد تناولا القصة نفسها وهي رائعة تولستوي (آنا كارنينا)، فهناك كان الإخراج الرائع والسيناريو المحكم والتصوير المدهش فضلاً عن الأزياء والأماكن والخدعة التي استخدمت بمهارة، ولكن كل هذا كان في كفة وأداء فاتن وعمر كان في الكفة الأخرى، لقد رجحا بأدائهما المميز كفة نهر الحب على «حب». فاتن فاقت بأدائها غريتا غاربو وعمر شريف تفوق على جون غيلبرت.

فاجأتني بمتابعتها وقدرتها التحليلية وخصوصاً أن كلا الفيلمين قديم منذ أيام الأبيض والأسود، ففيلم حب تم تصويره في العام ١٩٢٧

فيما تم تصوير فيلم نهر الحب في العام ١٩٦٠، وهذا يدل على معرفتها الجيدة بالأفلام الكلاسيكية. قلت محاولاً مجاراتها:

- أعتقد أن كل عناصر الفيلم من إخراج وقصة وسيناريو وصوت وتصوير وأزياء وأداء ممثلين وإلخ، إذا ضعف أحدها ضعف الفيلم وإذا تكاملت تكامل الفيلم، وشيء طبيعي أن ترجح كفة فيلم «نهر الحب» في المقارنة التي قدمتها بين الفيلمين نظراً إلى الفرق الزمني بينهما وما حدث من تطورات في فن السينما عموماً خلال الفترة التي تفصل بين الفيلمين، أضيفي إلى ذلك أن غريتا غاربو هي سويدية قادمة إلى هوليوود دون معرفة باللغة الإنكليزية، فضلاً عن أنها كانت مريضة أثناء تصوير الفيلم ما تسبب بوقف التصوير عدة مرات، وهذه أسباب كافية تضعف من معنويات بقية العاملين في الفيلم. ففريق التمثيل في فيلم ما مثل فريق كرة القدم إذا لم يتعاون اللاعبون وطاقم التدريب ومن خلفهم الإدارة فلن ينجزوا مباراة جيدة ترضي الجماهير حتى ولو خسروا نتيجتها، الأمر نفسه ينطبق على الممثلين والمخرج والمنتج والسيناريست والمصور إلخ... إذا لم يتعاونوا بعضهم مع بعض بشكل جيد فلن ينجزوا فيلماً يرضي الذائقة حتى ولو لم يحصد جوائز.

ويبدو أن حديثي لم يعجبها، أوأبعدها عن هدفها الذي سيتضح لي من خلال وجهة نظرها التالية:

- ولكنني هنا بصدد الأداء المؤثر والمميز لفاتن وعمر في الفيلم المعني، إنني كنت ولا أزال أظن أن فاتن حمامة نجمة لن تتكرر ولن يجود الزمان بمثلها مرة أخرى، ليس على الصعيد العربي

فقط وإنما على المستوى العالمي أيضاً، وأن عمر شريف كان يستمد قوة أدائه من قوة أدائها، إلى أن امتلك المقدرة التي مكنته من غزو هوليوود ليصبح أحد أهم نجومها!

بدا عليها الانفعال وهي تعبر عن انحيازها المفرط إلى فاتن حمامة، حبها الشديد لفاتن جعلها تبالغ في تقزيم فنانين موهوبين مثل عمر وغريتا وغيلبرت، ولم تكن على استعداد لتقبل أي تعليق أو نقد لا يصب في مصلحة فاتن حمامة، واكتفيت محاولاً فقط توضيح دور الزمن وما يحدثه من تغيرات في صناعة السينما التي تعتمد بشكل أساسي على التكنولوجيا التي تدخل في الصوت والصورة والخدعة السينمائية إلخ... وإنها إذا أرادت أن تعقد مقارنة بين نجوم التمثيل فعليها مراعاة الفرق الزمني بين جيل وآخر، وأنه يمكنها مقارنة فاتن وعمر بأبناء جيلهما مثل اليزابيث تايلور وبريجيت باردو وصوفيا لورين وروك هدسون ومارلون براندو وسيدني بوتير، هذا على سبيل المثال لا الحصر. ثم ختمت حديثي محاولاً إرضاءها بقولي فيما كنت أتضاحك: (مصر أم الدنيا كما يصفها أبناؤها... أوليست هي من أنجبت جمال عبد الناصر وأم كلثوم ونجيب محفوظ ويوسف شاهين وعبد الوهاب والإمام محمد عبده؟ أوليس هؤلاء ظواهر خارقة؟ إنها جينات أجدادهم الفراعنة العباقرة وقد انتقلت إليهم...!!).

# وسرت في الظلام وحيداً

عندما عاد ياسر ورفاقه كنت قد اتخذت قراراً بعدم رفقتهم إلى أي مكان. فكرت بأنهم سيقررون قتلي في نهاية المطاف، لأنهم لن يكفوا عن الاعتقاد أن بحوزتي مالاً أخفيه عنهم، وأنهم سيفعلون كل ما سيخطر في بالهم لإخراج ما أخفي عنهم من مال لا وجود له، وحين يصيبهم اليأس سيقتلونني ويلقون بجثتي في الجبل طعاماً للجوارح! إلى هنا أوصلني يقيني، وهكذا رسخ ذلك اليقين في وجداني. وهيأت نفسي لمقاومتهم حتى الموت إن هم حاولوا إجباري على ركوب سيارتهم المشؤومة تلك. صحت فيهم بعداء حين أوقفوا سيارتهم أمامي وطلبوا مني الركوب:

- لا لن أذهب معكم يا سفلة!

أحسست بأن علامات الذعر والمفاجأة ترتسم على وجوههم المظلمة! ثم أطلقوا لسيارتهم العنان بأقصى سرعة فارّين من المكان. تنامت مخاوفي وهواجسي. لماذا هربوا بتلك السرعة...لماذا أصابهم الذعر حين صحت فيهم؟! لا بد أن رجال الأمن يطوفون حول هذا المكان، أو قوة عسكرية مرابطة في موقع قريب من هنا. أخذت أسير

مبتعداً عن مكان تلك الهاوية اللعينة، الظلام قائم ومهيمن، ولكنني أستطيع أن أرى الأشجار والصخور أمامي فأتجنبها. واصلت سيري برغم الهواجس والخوف والظلام الموحش إلى أن أحسست بالتعب يتملكني. جلست على أرض عارية صلبة ثم تمددت وتوسدت حقيبة ثيابي التي بدت لي ثقيلة ومزعجة. سمعت صوتاً كحفيف الأشجار حين يداعبها الريح، رفعت رأسي ونظرت حولي، لمحت حيواناً بحجم كلب يتشمم الأرض فيما هو يمشي نحوي بخطى حذرة، هببت واقفاً بسرعة هر من شدة الخوف الذي اجتاحني في تلك اللحظة، فهرب الحيوان واختفى في الظلام. حملت حقيبتي وواصلت سيري، أجهدني ثقل الحقيبة فوضعتها على الأرض وفتحتها وأخرجت منها حذاء وبنطال جينز وجاكيت وكنزتين شتويتين ورميتها متخلصاً منها ثم أعدت قفل الحقيبة وعلقتها على كتفي وتابعت سيري. تناهى إلى أذني نعيق سيارة، لاحت أمامي ربوة فتقدمت منها وصعدت إلى قمتها، رأيت أضواء ممتدة في خط مستقيم وسيارات تروح وتغدو. فكرت أنه طريق رئيس وقررت الوصول إليه فلربما وصلت عن طريقه إلى بيروت، اجتاحني شعور بالفرح فيما أنا أحث خطاي هابطاً من قمة الربوة إلى أسفلها. اختفت الأضواء وتوارت خلف التلال والظلام، وشرعت أسير في العتمة مجدداً، فقد رسخ في ذهني موقع الطريق ويمكنني الوصول إليه بسهولة إن لم تعترضني عقبات طبيعية كانت أو بشرية.

وكما حدست اعترضني بعد دقائق قليلة من سيري ماء يجري أمامي، سمعته دون أن أراه كي أحدد مقداره، أخذت أخطو نحوه بخطى أسرع إلى أن أحسست به تحتي، أمعنت النظر فيه فعجزت عن تحديد هويته، هل هو خور، هل هو فرع من نهر، هل هو جدول ماء اصطناعي لري حقل؟ فلربما أولجني سيري في حقل من حقول تلك المنطقة، لم لا! ولكن لم لا يكون نهراً، فلبنان كما قرأنا في الأدب اللبناني كثير الأنهار، العاصي... الليطاني... الكلب...بردى!

كلها أسماء لأنهار ورد ذكرها في القصة والرواية والشعر اللبناني. ولكن هل يعقل أن ثمة نهراً بهذا الحجم الصغير؟ في بلادي النهر يعني مياهاً تجري في رقعة واسعة لا متناهية في امتداد طولها وعرضها وخصوصاً في زمن الخريف والفيضانات، ويعني مشاريع زراعية تقوم حوله وعائلات تسترزق من خيراته، ومراكب وصيادين وأسماكاً لا حصر لأشكالها وأنواعها وحجومها وأعدادها وطيوراً مهاجرة تتوقف قليلاً من أجل الاستجمام كي تبدأ رحلتها مجدداً جنوباً وشمالاً وشرقاً وغرباً، طيوراً موسمية وأخرى مقيمة بشكل دائم، رمالاً بيضاء ممتدة بامتداد الشاطئ تلتمع على سطحها البراق تحت أشعة الشمس أصداف وقواقع قذفت بها الأمواجُ في ثورة النهر، جزراً، أشجار صفصاف، حشائش لا حصر لها، تماسيح وحكايات وأساطير عن كائنات خرافية.

ذلك هو النهر في بلادي، فهل يعقل أن أسمي هذا الذي يجري أمامي الآن نهراً أو نهيراً كما حاول بعضهم إقناعي لاحقاً؟ قررت أن أتجاوزه قفزاً وقد نجحت، قذفت حقيبتي في الجانب الآخر، ثم

رجعت خطوات عديدة إلى الوراء ثم جئته مندفعاً، ثم قفزت بكل ما أوتيت من قوة لأجد نفسي ساقطاً إلى جانب حقيبتي مخلفاً الوادي الذي يجري في أسفله الماء ورائي.

واصلت سيري في أرض منبسطة تغطيها أعشاب رطبة، وقد خلفت ورائي الغابة الجبلية المظلمة وأصبحت على بعد خطوات من عالم النور. ومع تزايد الضوء وارتفاع نعيق السيارات تبدد الخوف والظلام وعاودني الأمل. ولكن...وعلى غير استعداد مني وقعت عيناي على شبح لخيمة ودبابة، ما هذا!! شيء أشبه بعفريت برز فجأة من باطن الأرض! لقد صدق ما حدست به حين رأيت ياسر ورفاقه يفرون ويتلاشون عني في ثوانٍ حين صحت فيهم وسببتهم عن وجود قوة أمنية قريبة من موقعنا، كانوا على علم إذن بوجود تلك القوة ولا بد أنهم يعلمون حجمها وتجهيزها وربما أسماء أفرادها أيضاً، لهذا السبب ذعروا وفروا دون أن يردّوا على شتمي لهم، يا لهم من جبناء. كان أمامي خياران! المرور بجانبهم أو العودة من حيث أتيت. وقد بدا لي الخيار الأول أكثر موضوعية من الثاني، لأنهم قد لا يرونني أثناء مروري أمامهم، وقد يرونني وينظرون إلي بعين الرحمة فيسمحون لي بالمرور. وأما الثاني فقد تتمخض عنه عدة مخاطر، أهمها الوقوع في يد أولئك السفلة فيتسببوا بإذائي، أو ربما أقع في يد دورية أمن فينتهي بي الأمر إلى السجن، حيث أوشك بزوغ الفجر، وسيكون سهلاً عليهم رؤية النملة التي تدب بين الأعشاب! قررت المرور بالطريق الوحيدة

المتاحة أمامي، والتي تفصل بين حقل...لا أدري لأيّ نبات وبين معسكر الجنود المرابطين. سرت ببطء محاولاً ما استطعت عدم إثارة أي صوت بقدمي إلى أن اقتربت منهم، سمعت غطيط أحدهم، تابعت سيري إلى أن خلفتهم وراء ظهري دون أن يشعر أحد بوجودي. كانوا جميعهم يغطون في نوم عميق. ثم أخذت أسرع خطاي مبتعداً عنهم إلى أن ألفيت نفسي في الشارع الذي كنت قد رأيته من قمة الربوة. كدت أطير من الفرح لرؤية سيارات تروح وتغدو والأضواء تلمع في امتداد لا متناه، صياح ديكة، مواء قطط، نباح كلاب، همس الراديوهات وأجهزة التسجيلات، الموسيقى ونشرات الأخبار، فأحسست بالنجاة... نجاة من ماذا؟ أمن الموت؟ أم من السجن وما يترتب عليه من خيبة أمل وخذلان! المهم أن شعوراً بالنصر قد أضاء في أعماقي فيما كنت أسير في الطريق المضيئة وأنظر يمنة ويسرة فأرى المخابز ومتاجر الحلويات، ورائحة الخبز الطازج نفاحة شهية، فأزداد فرحاً وغبطة. لا أدري أين أنا وفي أي اتجاه أسير وإلى أين ستأخذني هذه الطريق التي تشي سياراتها المنطلقة بأنها في رحلة سفر طويل، وفيما كنت هائماً في تخيلات لا حصر لها، سمعت صوتاً ينبعث من الجانب الآخر من الطريق.

- ع وين رايح الشاب؟

التفت إلى مصدر الصوت فرأيت شاباً مهندماً يقف مستنداً بقامته إلى سيارة، أوجست خيراً، ودفعني تفاؤلي إلى عبور الطريق متجهاً صوبه، حييته، فمدّ يده لي مصافحاً ومبتسماً وهو يقول:

- بدك أي مساعدة؟

ولم يخب ظني به حين رأيته من بعيد، فكل ما حدث بعد ذلك أكدّ لي أنني لم أكن وحدي طوال الرحلة وأن قوة خفية كانت تسير معي منذ ابتدأت رحلتي مع أولئك التعساء وما فعلوه بي بعد ذلك لأواصل مشواري وحيداً في الظلام الموحش، ثم المرور بجنود الحراسة المدججين الذين لم يشعروا بمروري أمامهم إلى أن وصلت إلى هذا الشاب الذي ألقته في سكتي تلك القوة الخفية التي لم تتخل عني طوال الوقت، إنه ملاك وليس إنساناً، فما فعله معي ليس فعل إنسان بل هو فعل ملاك من السماء، هذا الملاك هو الذي جعلني أحب كل ما هو لبناني وأتصالح مع كل معاناة وألم قاسيتهما بلبنان، وأتسامح مع كل من سبب لي أذىً أو كبّدني جرحاً من أبناء الشعب اللبناني، عملاً بما لقّنتني إياه أمي منذ صغري: (علشان خاطر عين، أكرم ألف عين) وقد كان ناصر تلك العين التي جعلتني أتغاضى عن الكثير مما نابني من قسوة بعض الأشخاص الذين يحسبون على شعب لبنان. رويت له بتفصيل كل ما حدث لي منذ مغادرتي سوريا إلى اللحظة التي التقيته فيها. رأيت علامات العطف والغضب والمفاجأة ترتسم وتزداد وتتكثف في وجهه كلما توغلت في القصة إلى أن فرغت منها.

- يا للأوغاد عديمي الأصل!

وقد غلب الغضب على صوته وهو يقول ذلك، أطرق قليلاً برأسه كما لو كان يفكّر في أمر ما، ثم بعد لحظات من الصمت فتح باب السيارة

الأمامي وطلب مني أن أركب ففعلت، وركب هو في مقعد القيادة ثم أدار موتورها وانطلق في الطريق العام عائداً بي من حيث أتيت، أو هكذا بدا لي، إلى أن توقف أمام أحد المخابز التي مررت أمامها قبل أن ألتقيه. واستأذنني طالباً مني البقاء في السيارة إلى أن يعود. وعاد بعد لحظات يحمل كيساً من الورق أسمر اللون يحوي رغيفاً ساخناً. في طريق عودتنا أخبرني بأنني الآن في منطقة البقاع وتحديداً بضيعة دير زنون التي تبعد عن شتورة حوالى نصف الساعة بالسيارة. ولكن قبل ذلك عليّ أن أجتاز الحاجز العسكري الذي يقع على بعد خطوات من المكان الذي التقاني فيه، حيث يقوم أفراده بتفتيش المارة والقبض على كل من ليس له أوراق قانونية. ثم رمقني بعطف وقال:

- خليك معاي هون يومين تلاتة ع بال م ادبّر لك حدا ياخدك ع بيروت!

لم يكن لدي ما أقوله أو أفعله سوى الموافقة على كل ما يقوله ويفعله فالرجل يريد إخراجي مما أنا فيه من ورطة، وما عليَّ إلا السمع والطاعة. أوقف السيارة في المكان نفسه الذي تحركنا منه... أسفل شقته كما سيتضح لي بعد قليل، حيث طلب مني أن أصعد معه، شقة عادية نظيفة أنيقة الترتيب، جلسنا في صالة الاستقبال، أشعل هو التلفاز ثم أخذ ينادي «زينب» وجاءت امرأة في حوالى السادسة والعشرين من عمرها، شقراء ذات عينين زرقاوين، متوسطة القامة، تميل إلى النحافة...إجمالاً كانت جميلة حزينة الوجه. حيّتني بأدب

فأجبتها وطلب منها أن تأخذ الخبز وتعدّ وجبة. كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الخامسة فجراً بقليل، برودة رطبة تتسلل عبر نافذة مطلة على الشارع العام، تزايد في حركة السيارات وأزيزها المزعج ودخانها المتصاعد ممزوجاً بالغبار، وموسيقاها المنبعثة من راديوهات وأجهزة تسجيلها بصخب يثير الإحباط. اسمه ناصر عربية كما أخبرني حين قدمت له نفسي عند بدء لقائنا، لاحقاً سأكتشف أن عائلة عربية هي أكبر عائلة بالضيعة، التقيت معظم أفرادها وصرت صديقاً لهم إلى أن فارقتهم وسافرت إلى بيروت. وعادت زينب تحمل آنية تحوي عدداً من الأطباق، في كل طبق طعام يختلف عن الآخر، بعضها مألوف كالحمص وورق العنب، بعضها أراه لأول مرة، كنت جائعاً ومع ذلك عجزت عن الأكل. أخبرت ناصر بأنني بحاجة ماسة إلى الاستحمام، فخرج وعاد بعد لحظات وهو يحمل في يده منشفة ناولني إياها وقادني إلى الحمام. كان كل شيء في الشقة جديداً: الطلاء، الأثاث، الموكيت، الستائر، الأبواب والنوافذ الخشبية ذات الطلاء الكبدي اللون، الحنفيات، المرايا ذات الأطر المعدنية، مما أكد لي أنها بنيت وأثثت حديثاً، أو تمت صيانتها وإعادة تأثيثها هكذا بدت لي. تناولت حماماً دافئاً خفف عني أعباء بدني، ولكن ما الذي سيخفف عني هموم نفسي! كيف سأتجاوز هذه المحنة، وكيف سأقضي أيامي كضيف في منزل أجهل أصحابه وأصحابه يجهلونني، وخصوصاً أن الرجل له زوجة وأطفال، لو أنه كان عازباً لكان الأمر عادياً، ولكن هناك امرأة

تريد أن تأخذ حريتها في بيتها، فكيف سيتم لها ذلك في وجود رجل غريب، كيف تبقى في ثيابها البيتية وتجلس وأطفالها أمام التلفزيون، وكيف تستقبل رفيقاتها وجاراتها في وجودي؟! إنهم مسلمون، وقبل ذلك هم قرويون محافظون على العادات والتقاليد. ظل هذا الهاجس يلف ويدور في ذهني دون توقف أثناء الاستحمام وأثناء جلوسي وناصر أمام التلفزيون في صالة الاستقبال، وكأنه أدرك ما يعتمل في وجداني من مخاوف، نظر ناصر إلي نظرة مركزة أثارت ارتباكي، ثم قال كما لو أراد أن يودعني سراً خطيراً:

- لا تحمل هماً فوق ما تحتمل، أنت هنا في بيتك وبين أهلك، ولن يصيبك مكروه إلى أن تغادرنا بالسلامة إلى بيروت وأنا بدوري سأسعى منذ هذا اليوم للعثور على شخص أثق به وأضمن سلامتك معه إلى أن تبلغ مرماك وتلتقي رفاقك.

كانت كلماته كبلسم شاف لكل ما تملكني من ألم نفسي حيال ما أنا فيه من وضع غير محتمل، أزالت عني كل ما اعتراني من هموم ومخاوف. شكرته بكثير من الامتنان على كلماته الطيبة، رغم أنني أعلم أن كلمات الشكر لا تساوي قطرة من محيط كرمه وإنسانيته التي يندر أن يحظى بها امرؤ في هذا الزمان. بقيت في ضيافته مدة سبعة أيام، لم أشعر خلالها بالغربة، ولم أشعر بكوني ضيفاً لما أحاطني به وأفراد عائلته من طيبة وألفة وبساطة، كلهم، شقيقاته وأشقاؤه وبنوهم وفي مقدمتهم والدته طيبة القلب، كلهم يؤكدون لي بين لحظة وأخرى

أنني في منزلي وألّا أستحي إن كنت بحاجة إلى شيء «بدك شي» تلك هي العبارة التي أسمعها من كبيرهم وصغيرهم حين ألتقيهم ولحظة مفارقتهم إلى النوم. كان له إخوة يعملون خارج الضيعة، متزوجون ولكل منهم شقته الخاصة في البناية نفسها التي يقيم بها ناصر، وكانت أمه تملك دكاناً صغيراً لبيع المواد الاستهلاكية من ضمن الدكاكين المرصوصة في الطبقة الأرضية من البناية. عائلة لطيفة يجتمع أفرادها كل مساء في بيت ناصر لتناول الشاي والقهوة مع فطائر مضمخة بالزبد فيما تدور النارجيلة بينهم مع الحكايا والقفشات والطرائف التي يروونها مصحوبة بعبارات تخرج من أفواههم دون تحرّج. وكنت أضحك لها ضحكاً حقيقياً وتسألني أم ناصر ببقايا ضحكة:

- شو يا بو سمرا، عجبك هاي الحكي؟

وقبل أن أجيبها تسبقني كبرى بناتها والمقيمة وزوجها وأطفالها في الشقة المقابلة لشقة ناصر:

- لا تؤاخذنا يا خيي، نحن شعب أزعر!

وأجيبها ضاحكاً:

- أنتم أطيب شعب بالعالم.

ويظل ناصر هادئاً لا يقول شيئاً سوى الابتسام. وتظل زوجته زينب تزودهم بالشاي والقهوة والفطائر إلى أن ينفض اللقاء. كان لناصر خمسة أطفال أكبرهم ولد في السابعة من عمره وأصغرهم رضيع لم يبلغ الستة أشهر من عمره. وقد تآلفوا معي بسرعة وكأنهم

يعرفونني منذ زمن بعيد. ذات مساء ذهبت برفقة ناصر لحضور حفلة عرس في أحد منازل الجوار. حفلة بسيطة معظمها من الشباب. كانوا يرقصون رقصاً شرقياً على أنغام موسيقى منبعثة من مكبرات الصوت المنصوبة على أطراف ساحة الحفلة. فتيات جميلات رشيقات ذوات شعور طويلة منسدلة على ظهورهن ويزهين في ثياب جديدة محكمة على أجسادهن الفتية. كن يرقصن بمرح وقد أحاطهن الشباب بدائرة متحركة حولهن فيما هم يرقصون الدبكة. الجميع ينادونني بأنني بو سمرا، والجميع أبدوا ترحيبهم بي. أكلنا طعاماً أشبه بطبق الكوكتيل في أعراس بلادي: قطعة من اللحم المقلي بالزيت مع سلطة من الباذنجان والحمص والطحينة، إضافة إلى المخللات والجبن الأبيض والفلافل والخبز، طبق مملوء بكل تلك الأشياء مصحوباً بقنينة من المشروبات الغازية. وتقدمت نحوي فتاة جميلة ترفل في ثوب أشبه بثوب العروس، علمت أنها شقيقة العروس، طلبت مني برقة أن أراقصها، اجتاحتني موجة خجل عارمة لأنني لا أجيد الرقص لا شرقياً ولا غربياً، بل إنني أجهل الرقص السوداني، فكيف لي أن أراقص هذه الجميلة على الطريقة الشرقية، سوف أبدو مثل أراجوز أو مهرج أو أبله. اعتذرت لها بحجة أنني لا أجيد الرقص. ألحت عليَّ أن أجرب. لاحظ ناصر ارتباكي جراء الخجل الذي تملكني فيما كنت أعتذر لها وأتمنع فانتهرها بطريقة ممازحة:

– اتركي الزلمي لحالو قال إنه ما بيعرف خلاص ما بيعرف!

ضربته ممازحة على كتفه وهرولت وانضمت مجدداً إلى الحور العين لتواصل ما انقطع من رقص.

واصلت تجوالي بصحبة ناصر حول الضيعة الوادعة الخضراء بحقول زيتونها وكرومها وتفاحها.

والتقيت عدداً من أصدقائه الذين أبدوا ترحيباً حاراً بزيارتي لهم. كانت أعمارهم متقاربة، وقد جمعت بينهم الطيبة والمحبة والشهامة التي لا تخطئها عين أو تغفلها أذن، وقد تأثروا جداً لما حدث معي حين أخبرهم ناصر. وذات يوم فاجأني ناصر بقوله:

- لقينا لك شغل يا حسام!

لقد سبق له أن طلب مني البقاء بالضيعة، وكنت قد أقنعته بأنني ما جئت إلى لبنان للبقاء به، بل كي أستجم قليلاً ثم أواصل رحلتي، العالم مليء بالتجارب التي يجب أن تخاض، مناظر يجب تأملها، أشخاص يجب لقاؤهم، وأن ثمة خيبات تنتظرنا كي نتمرغ في أوحالها المحفوفة بالورود والرياحين، وحين يدركنا الموت سنبتسم في وجهه بكل رضا وأريحية ونخاطبه قائلين: (مرحى، مرحى، فقد عرفنا معنى الحياة وخبرنا سرّها، إلا أنت الذي لم نسعد بمعرفتك، هيّا...خذنا إلى حضنك فكلنا شوق إليك!).

وبين رغبتي في المغادرة ومحاولة إرضاء ناصر، قبلت الوظيفة التي أوجدها لي. رأيت أنه ليس من الأنصاف أن أقابل رغبته في إبقائي إلى جانبه برحيل أشبه بالنفور، حسبت ذلك خشونة، وقررت أن أرحل

رحيلاً سلساً، وبعد أن يتأكد هو أنني لا أستطيع البقاء قابعاً في قرية بطرف لبنان وأنا الذي ولدت وترعرعت في المدينة. كانت الوظيفة التي أوجدها لي هي صبي ميكانيكي في كاراج أسفل البناية، هو أحد الدكاكين التي تملكها عائلة ناصر، كان يملكه رجلان، أحدهما في حوالى الثالثة والأربعين من عمره بينما الآخر في حوالى الستين، وهو من أهالي شتورة. صبي ميكانيكي!! إنه لأمر مضحك بحق. أنا الذي لا أجيد تصليح دراجة هوائية، بل لا أجيد التعامل مع مفاتيح حل البراغي وربطها، أجد نفسي بين صبيحة وضحاها مساعد ميكانيكي، يا للطرافة!

كانت ورشة كبيرة بحق. وجدت نفسي بين أكثر من خمسة عشر عاملاً سورياً، رحبوا بي بطيبة وعاملوني بلطف. لم أكن أعلم ما هي طبيعة عملي على وجه التحديد، ناداني صاحب الورشة الشاب وهو أيضاً سوري من أهالي حمص، وهو الذي يقوم بإدارة المحل وتصريف شؤون العمّال، سألني أي عمل كنت أمارس ببلدي فأجبته! ضحك وهو يقول لي:

- هذا لا شأن له بما نفعله هنا!

ثم صاح منادياً: عبد...عبد، ودخل شاب في حوالى الرابعة والعشرين من عمره، يبدو عليه المرح وهو يتلقى الأوامر الممزوجة بعبارات ممازحة من معلمه:

- خذ الشاب وعلّمو!

خرجت معه من مكتب المعلم فألفيت نفسي في حوش كبير

مملوء بسيارات نقل كبيرة، أرضيته سوداء بسبب الزيوت المحروقة، ومعظم السيارات كانت معطوبة وفي انتظار دورها في التصليح. وغمزني عبد وهو يقول: كلنا بدأنا مثلك، لا نعرف شيئاً، ولكننا تعلمنا بمرور الأيام. وقليلاً قليلاً تعرّفت إلى بقية الشبان وصرت واحداً منهم. ونقلت أشيائي إلى غرفة بها حمام ومطبخ يفصلها عن الورشة حائط خشبي. أخبروني بأنها كانت قبل أيام قليلة مسكناً لحارس الورشة وزوجته، وقد طردهما المعلم بسبب إكثار الزوج من الشرب وخناقاته المزعجة مع زوجته، فضلاً عن إهماله واجبات عمله، أحسست بكثير من الارتياح لإقامتي بمفردي، أقضي النهار في عمل لا أجيده، ولن أجيده، والليل بين ناصر وأفراد عائلته. ظللت هكذا لما يقرب من الشهر. ولو أنني كنت أعلم بما سيحدث لي لاحقاً ببيروت لما برحت مكاني هذا، كنت آمناً بين أناس طيبين فعلوا ما وسعهم كي يطردوا عني الإحساس بالغربة. ولكنني كنت أبحث عن الشقاء والألم بطريقة تقرب من السادية.

- غداً سأرحل إلى بيروت!

قلتها لناصر دون أن أنظر إلى وجهه لأرى وقعها على قسماته. وبعد فترة صمت لا أدري مداها، سألني بصوت يغلب فيه العطف على المفاجأة:

- ومين ح ياخدك ع بيروت؟

أخبرته أن صاحب الورشة الآخر (بو جميل) سيأخذني إلى

شتورة، ومن هناك سيجد من يأخذني إلى بيروت حسب قوله. قلت ذلك وأنا لا أزال متجنباً النظر إلى وجه ناصر. بعد لحظات من الصمت أحسست بيده تربت كتفي برقة، ثم ينصرف دون أن يقول شيئاً. في اليوم التالي وفيما كنت أودّع أفراد عائلته فوجئت بعدم وجوده بينهم، لم أسأل عنه ولم يخبروني بدورهم بمكانه. لقد أراح نفسه وأراحني من لحظة الوداع. كانت واحدة من تلك العلاقات النادرة الحدوث، التي يلتقي طرفاها صدفة، وسرعان ما تتعمق أواصر الصداقة بينهما وتصبح أقوى وأجمل من علاقاتهما القديمة. وإذا سئل أحدهما عن سر تلك (المحبة) فأغلب الظن أنه سيعجز عن إيجاد تفسير موضوعي لها. وقد يحدث ذلك بين شخصين متناقضي الشخصية، عجوز وصبي، مثقف وجاهل، مجرم ومصلح، متديّن وملحد، مهذب وفاجر! شعور لا تحكمه قاعدة ولا منطق!

في شتورة توقف بو جميل في موقف عام للسيارات. كانت سيارات التاكسي تصطف في جانب وباصات النقل العام في جانب مقابل لها. كل الناس هنا يعرفون هذا الرجل الطيب بو جميل، سأكتشف لاحقاً من سائق التاكسي الذي أقلني إلى بيروت أنه كان زميلاً لهم (شوفير) في النقل العام، وأنه رزق مالاً من ورثة ضمن أفراد عائلته فترك الشوفيرية واتجه للعمل بالتجارة. لم تطل وقفتنا، حيث توقف أمامنا رجل رمادي الشعر ونزل من سيارته المرسيدس التي تضيء أعلاها علامة (تاكسي) وتعانقا هو وبو جميل «عناق صديقين عزيزين».

- أهلين بو جميل.
- أهلين بو سامر.
- ولله زمان.
- ولله زمان.
- شو، ناطر حدا هون؟
- بدي حدا ياخد هذا الشاب ع بيروت...

ثم أضاف بو جميل بعد لحظة صمت:

- إذا فيك خدو وهو يعطيك عشرين دولاراً.

وابتسم الرجل ابتسامة عريضة في وجه بو جميل وهو يقول:

- تكرم عينك يا حبيبي يا بو جميل...ع راسي.
- يسلم رأسك يا حبيب ألبي.

ثم طلب مني بو جميل الركوب في سيارة بو سامر وودعني بعطف وهو يقول:

- أعطيه العناوين الـ معك وهو يوصلك وين م بدّك...هو صديقي وراح يتوصى فيك، خلّي بالك من نفسك، الله يوفقك.

جلست في المقعد الأمامي وانطلقت بنا سيارة بوسامر. اكتشفت بعد قليل من انطلاقتنا أن ثمة شاباً وشابة في حوالى الثلاثين من عمرهما يجلسان شبه متعانقين في المقعد الخلفي...متراخيين بظهريهما على مسند المقعد، هي تضع رأسها على صدره، فيما يحيطها هو بيسراه ويداعب خصلات شعرها الذهبي بيمناه. حييتهما فردّا التحية ببشاشة.

أدرت وبو سامر حديثاً كان في مجمله عن السودان وشعب السودان، كان يسألني وكنت أجيبه، ويبدو أنه من محبي نميري وصولاته وجولاته أيام عبد الناصر والرؤساء الشبان الذين تأثروا به وصورهم المعلقة في واجهات الأماكن العامة والشوارع وهتافات الوحدة العربية ودعم النضال الفلسطيني في مواجهة العدو الصهيوني وقوة تأثير الأحزاب اليسارية في الشارع العربي!

وبينما السيارة تطوي المسافة طياً إلى بيروت وأثناء فجوات الصمت، كنت أستعيد كل ما حدث معي منذ أن غادرت أرض الوطن إلى اللحظة التي ودّعت فيها أفراد عائلة ناصر وعيناي تدمعان. بدا الأمر لي وكأنني أفقت من حلم مخيف. ها أنذا أطوي صفحة لأفتح صفحة أخرى، ها أنذا أنهي رحلة مجهول كانت أشبه بكابوس لأبدأ رحلة مجهولة أخرى! أتساءل: أهي تجارب وجب عليّ خوضها، أم أنه مصير سطره لي القدر ولا بد من حدوثه؟

أضواء تتراقص على امتداد يعانق الأفق. منازل أشبه بالقصور العتيقة تنتصب بفخامة وشموخ على جنبات الدروب التي نمرفيها. نعبر جسوراً، نمر من تحت أنفاق، إلى أن يوقف بو سامر السيارة أمام بناية فخمة تدعى «الجفينور» مقابلة للنادي السوداني الثقافي الاجتماعي الرياضي كما هو مكتوب على اللافتة المعلقة أعلى المدخل.

# وجع واشتهاء

وجدت الباب مفتوحاً فدخلت مباشرة ودون أن أكلف نفسي عناء الطرق، وجدتها جالسة كعادتها على الأريكة بصالة الزوار. جميلة رقيقة أنيقة. ولكنها ليست هادئة كما عهدتها، كادت تنفجر بالبكاء وهي تستقبلني بقولها:

- رقبتي بتوجعني يا حسام.

قلت محاولاً إظهار عطفي وإشفاقي على ما هي فيه من ألم:

- ألف بعد الشر عليك مدام هبة.

أمرتني بالجلوس فجلست على مقعد بالقرب منها. أرادت أن تقف فاستحلفتها البقاء في مكانها، على أن تسمح لي بخدمتها الليلة. سرت عبر الممر نحو البار القائم في ردهة تنتهي إلى غرفة نومها، حيث سبق لي وأن جلبت منه زجاجة كونياك. غير أني أحضرت زجاجة فودكا كما طلبت هي هذه المرة. وضعتها أمامها وسرت إلى المطبخ حيث جلبت كأسين بعد أن وضعت خمسة مكعبات ثلج في كل منهما. صببت كأسها وصببت كأسي وشربناهما نخب صحتها.

- آه يا حسام، رجلي بتوجعني، رقبتي بتوجعني، ظهري

بيوجعني، كل بدني بيوجعني! قالت ذلك وهي تتمطى على الأريكة مثل حية كسلى. دهمني شعور بأنني مقدم على تجربة غير مألوفة، تجربة غريبة وعجيبة! وشربنا كأساً ثانية وثالثة. حتى تلك اللحظة لم أكن أعرف شيئاً عنها سوى أنها امرأة ثرية تملك إلى جانب البناية مطاعم في أنحاء شتى ببيروت أما عن شخصها، ابنة من، زوجة من، كيف حصلت على تلك الثروة؟ فلم أكن أعلم ولم أجرؤ على سؤالها! امرأة بدت لي مثل لغز محيّر، لم أرها تتحدث إلى أي من سكان البناية سوى بو فادي، وأن أخوها الأصغر الذي يساعدها على إدارة المطاعم، يأتي لزيارتها مرة أو اثنتين خلال الشهر، كان قاسي الملامح رغم وسامته.

- بد يّاك تدلك رقبتي إذا بتريد!

قالت ذلك ببساطة تقرب من الرجاء. كانت مفاجأة، وكان خوف تملّكني، برغم تنبؤي أن ثمة تجربة غريبة تنتظرني مع هذه المرأة ذات الجمال المهيب. لا أدري أي نوع من التجارب، كيف تبدأ وإلى أي نهاية ستأخذني! ومع ذلك قررت خوضها دون خوف أو نفور! يبدو أنني قد أدمنت المغامرات. كنت أنوي أن أطلب منها السماح لي بذلك، ولكنها سبقتني بأن بادرت هي بالطلب.

- بأمرك مدام هبة!

هكذا يعبّر المستخدم عن طاعته لمستخدمه بلبنان. وقفت هي

وخلعت الروب عن بدنها ورمت به على الأرض ذات الموكيت الجديد وعادت تجلس في مكانها. تقدّمت نحوها إلى أن صرت في محاذاتها من وراء الأريكة. وضعت يديّ الاثنتين على طرفي عنقها وشرعت أدلك ببطء وحذر، أصعد بهما وأهبط بين أسفل الرأس وأعلى الكتفين. في البدء كنت مركزاً بصري على عنقها حيث تعمل يداي فقط، حاصراً همي في إزالة أوجاعها، ولكن الآهات التي كانت تصدرها كلما مرت يداي بموضع الألم، والرائحة الزكية المنبعثة من شعرها وجسدها، ملمسها الناعم، كلها مع بعضها عجلت بإيقاظ الحيوان النائم في أعماقي. آهاتها يطغى فيها الدلال والرغبة على الألم، أخذت أتأمل كتفيها العاريتين الشفافتين اللتين أحالت يداي بياضهما إلى احمرار كلون الشفق في لحظة مغيب الشمس، وتدحرج نظري بغير إرادتي إلى الصدر الناهد البديع، حيث يقف النهدان في شموخ وتحد كنهدي مراهقة، يتراقص عليهما ضوء الثريا المتدلية من سقف القاعة فيجعلهما مثل لهب شب فجأة في هضاب وادعة. وكأنها أحست بعيني تجوبان... تتوغلان... تلتهمان المناطق المحرمة، أحسست بأن بدنها يرتعش ارتعاشة خفيفة، ثم تقول لي:

- بيكفي هيك رقبتي، تعال ع رجليّ.

تركت الرقبة وتقدمت نحو قدميها، جلست أمامها على ركبتي كما يجلس راهب أمام أيقونة قديس في معبد، ومدت هي قدمها اليمنى: لنبدأ باليمنى، هكذا هتفت. قدماها صغيرتان بيضاوان طريتان صقيلتان

منمقتان، أظفارهما مقصوصة ومطلية باللون الأحمر. دلكتهما بحنان، أحتضنتهما بكلتا يديّ كما تحتضن أم وليدها. أمسدهما برقة كما لو أوشكتا على الذوبان والتلاشي بين يدي. أتساءل في داخلي: أليس هذا ما يفعله الزوجان في خلوتهما، أم أنه فعل الخدم لسادتهم؟ والجواب: هو «نعم» في كلتا الحالتين! فهناك من يعبدون زوجاتهم ويبذلون أنفسهم من أجل سعادتهن ورضائهن، وسراً يلعقون مؤخراتهن ويتذوقون طعم بولهن و...! يا لها من امرأة! بضة...ناعمة...ملساء...! أي رجل سعيد ذاك الذي يقتني هذا الكنز الثمين؟

- ع فوق شوية!

وزحفت يداي ببطء من القدم إلى الساق الممتلئة ومنزوعة الشعر، ساق مخملية حيّة راعشة نابضة، وأخذت أضغط بين الشدة واللطف على ربلة الساق، تتأوه هي وأتوجع أنا لآهاتها. أنتقل إلى قدمها اليسرى مكرراً الزحف البطيء الحنون بين الشدة واللطف، من أسفل القدم الحريرية إلى ربلة الساق المخملية، أزيد من قوة الضغط قليلاً كي تزيد هي من آهاتها التي تشعل حريقاً في أعماقي كما يشتعل حريق في حقل حنطة.

- بيكفي هيك، شكراً لإلك!

وعدت وجلست مكاني، فيما انتصبت هي وارتدت روبها الأرجواني. ولم يمض يومان على ذلك الحدث حتى طلبت مني الصعود إلى شقتها لأن الأوجاع قد عاودتها مجدداً ولكن في ظهرها

هذه المرة وتريدني أن أدلكه. تناول كل منا كأسين من الكونياك ثم رأيتها بعد ذلك تقف منتصبة وتخلع الروب وتتمدد على بطنها على الأرض وسط الصالة. أنظر إلى ردفها المنتصب كجبل فيشتعل حقل الشهوة في داخلي.

- هون...هون!

قالت ذلك وهي تضع سبابتها عند منتصف الظهر. تقدمت منها وجلست على ركبتي ومددت يدي الاثنتين وشرعت أدلك موضع الألم حيث أشارت هي. أحس بجسدها تحت ثوبها الناعم الشفاف دافئاً رطباً ونابضاً، كانت مع كل ضغطة تبدي اهتزازاً يهتز في إثره ردفها البض الرّجراج، تتأوه هي وتتأجج نيران الرغبة في داخلي. أتساءل: هل يمكنني نيلها؟ أحتدم أنزلق إلى حافة الهاوية، أسمع نداء يتفجر من عمق الهاوية: عد إلى صوابك أيها الخادم الوضيع، فأنت لست سوى أداة تسلية، فأعود إلى صوابي خائفاً ومنكسراً، ألم أصبح مركزاً للانكسار والهزائم مذ وطئت قدماي أرض الغربة!...لالا...بل مذ تربعت الإنقاذ على عرش السلطة في بلادي وحتى هذه اللحظة؟!

- إطلع لفوق شوية!

وهذا إيذان لي بأن أحوم بيدي في أنحاء ظهرها، مستكشفاً مناطق جديدة خارج حدود المناطق المصرح بها في بداية الغزو. أخذت أصعد إلى أن تصل يداي إلى الكتفين ثم أعود ببطء إلى أن أصير في تماس مع جبل الردّف الرّجراج فتأمرني أن أتوقف عند ذلك الحد.

السروال واضح السواد تحت ثوبها الشفاف، بارز الخطوط عند نهاية الردفين وبداية الوركين. السروال هو الذي يجمع الكتلتين المتماسكتين المتداعيتين ويجعلهما متحدتين على هيئة جَبل شامخ.

وتجرأت بقولي لها:

- إذا استخدمنا كريماً أو زيتاً سيكون الدّلك أكثر فاعلية.

وما إن فرغت من قولي ذاك، حتى أحسست بموجتي خوف وندم تتقاذفانني يمنة ويسرة. فقولي يعني أن تتعرّى من ثيابها أمامي حتى أتمكن من استخدام الدهان أو الزيت أثناء دلكها! يا لغباوتي وتهوري وحاولت تلافي ما قلت، إلا أنها سبقتني بقولها:

- مو الحين، هلق أنا تعبت!

وتنفست الصعداء لقولها هذا، فقد توقعت منها أن تهب من مكانها وتنتهرني وتسفهني ثم تطردني من شقتها أو ربما البناية برمتها، ولكنها وافقت على الفكرة! وهذا يعني أنها سوف تتعرى أمامي كي أتمكن من مسح بدنها بالكريم أو الزيت قبل أن أبدأ عملية الدلك. ستكون متعة لن أنساها ما حييت. سأدغدغ الجسد البض دون حواجز، سأستمتع بعريها الهائل وأستنشق عبير أنوثتها وأداعب تكوراتها الجهنمية بلا خوف أو تحرّج!

# وانقشع الخوف

أصرّ بو سامر على انتظاري أمام مدخل النادي إلى أن أجد شخصاً من أصحاب العناوين التي بحوزتي. قبل دخولي إلى النادي كنت قد تخيلته على شاكلة أنديتنا في السودان: الحوش الواسع ذو النجيلة الخضراء والمحاط بأشجار البان، وغرفتان أو ثلاث في المؤخرة ومزيرة بها عدة أزيار ماء، ومرحاض تركي في أحد الأركان، وحنفية ماء في الوسط.والرواد الذين هم من أبناء الحي يجلسون على كراسٍ ذات قوائم من حديد مطلي باللون الأزرق ومساجة بسيور من البلاستيك، يجلسون حول طاولات حديد زرقاء مبعثرة في الحوش منهمكين في لعب الورق والدومينو، وآخرون مقسمون جلوساً أمام التلفزيون أوجدلاً في السياسة أو غلاطاً حول دوري كرة القدم الذي غالباً ما يكون محوره قطبا القمة الهلال والمريخ. تلك هي الصورة التي رسمتها في مخيلتي عن النادي السوداني ببيروت قبل أن أراه. ولكنني فوجئت بصورة مغايرة لما توقعته. إذ كان عبارة عن طبقة أرضية في بناية، يحوي غرفتين صغيرتين متلاصقتين وصالة جلوس ومطبخاً صغيراً مطلاً على ردهة تحوي عدداً من الطاولات والكراسي تستخدم للزبائن، وجدته

خالياً إلا من شابين. تقدمت نحوهما وحييتهما، بادلاني التحايا ببشاشة، أحدهما ربعة القامة أدكن البشرة ويدعى عثمان وهو الذي يقوم بإدارة المطبخ، والآخر يميل إلى الطول، قمحي اللون رمادي الشعر رغم صغر سنه الواضح على قسمات وجهه واسمه نصر الدين. أخرجت لهما ورقة تحوي أسماء أصدقاء فيصل، وسألتهما إن كانا يعرفان تلك الأسماء، ولحسن حظي أن كان جوابهما إيجاباً، وتطوع نصر الدين بأخذي إلى منزلهم الكائن بعائشة بكار التي تبعد حوالى مسافة ميل عن النادي. ركبنا سيارة بو سامر الذي انطلق بنا مباشرة إلى المنزل بتوجيه من نصر الدين، حيث أنزلنا وأعطاني رقم هاتفه وطلب مني مهاتفته متى احتجت إلى مساعدته وتمنى لي إقامة طيبة وانصرف. وفي المنزل وجدت عبد الباقي وعصام ومصطفى أنور، أصدقاء فيصل فتنفست الصعداء. كانت تلك لحظة انقشاع الخوف وتبدد الهواجس عن وجداني.كانوا كما وصفهم لي فيصل: لطفاء متمردون مهووسون بقراءة الأدب. قضيت بينهم شهراً كاملاً ثم تفرقنا بعد ذلك إلى مساكن مختلفة، حيث حقق كل منهم حلمه في العمل كبواب بناية، وانتقلت أنا إلى سن الفيل للإقامة والعمل في (بيروت هول). صرنا نلتقي في أيام الآحاد في شقة صديق لهم مقيم في منطقة الجناح ويدعى معتز حسن، كان أكثرهم هوساً بالقراءة، فعن طريقه عرفت مجلة الفصول الأربعة وعدداً من الملاحق الثقافية الأسبوعية، كان كل منهم قد اتخذ لنفسه صديقة حبشية، تعرّفت إليهن جميعاً ونصحوني أن أترك عملي

بأرض المعارض والعودة إلى بيروت الغربية ومحاولة إيجاد عمل كبواب (ناطور بناية) كما يقال بلبنان، فقد أكدوا لي أنه عمل أمثل وأكثر أمناً واستقراراً، بالإضافة إلى فرصه الواسعة في الحصول على عشيقة. وبدلاً من أن أعمل بنصيحتهم سافرت إلى طرابلس، ثم عدت لأعمل في (دوحة هول) وهو مجمع سكني تحت الإنشاء، عملت فيه عامل بناء، وأقمت بمساكن العمال الذين كان أغلبهم سوريين يليهم المصريون ثم السودانيون الذين وفد جميعهم من قرية تدعى (شبعانة) كنت لأول مرة أسمع بوجودها. ثم تركتها وعدت مجدداً إلى بيروت. صرت أتنقل بين عصام ومصطفى وعبد الباقي ومعتز، إلى أن التقيت بو فادي صدفة عندما دخلت إلى متجره بالبربير لشراء معطف شتوي استعداداً للشتاء فيما كنت أهم بالمغادرة إلى طرابلس، حيث عرض عليَّ العمل ناطوراً فقبلت دون تردد.

# الوحل

قادتني قدماي إلى مخيّمي صبرا وشاتيلا ولا تزال مناظر القتلى واضحة في ذهني، حية في ذاكرتي، وهل من مواطن عربي يستطيع أن ينسى أو يتناسى تلك المذبحة الهمجية التي ارتكبت بحق النساء والأطفال والعجزة، ما لذنب جنوه إلا لكونهم فلسطينيي الجنسية! لقد قبلوا واقعهم الأليم. الحزن والدموع وبيوت الصفيح بين المزابل التي ترتع فيها الجرذان في وضح النهار. هناك في تلك الجحيم، لحقوا بهم وشرعوا يبيدونهم بدلاً من الجرذان.

هنالك... في تلك البقعة الحزينة، تعمقت في ذهني فكرة كنت قد توصلت إليها بمفردي عن العالم، وعن الإنسان، عن كون الإنسانية قد تقدمت كثيراً في إنتاج أسلحة الدمار الشامل وسبل الوصول إلى الفضاء وزراعة الأعضاء البشرية والانتقال من بلد إلى بلد في سويعات قليلة بدلاً من الزحف السلحفائي الذي يستغرق شهوراً طوالاً على ظهور الدواب والسفن الشراعية والبخارية أيضاً. ولكنها – الإنسانية – لم تتقدم في مشاعرها الإنسانية بما يواكب تقدمها في مجال العلم والتكنولوجيا. تلك المشاعر التي تجعل الإنسان ينظر إلى أخيه

الإنسان بحب لا بحقد، باحترام لا بازدراء، برأفة لا بقسوة، متجاوزاً كل الحواجز والعقبات، أكانت بفعل الرب أم بفعل البشر. لقد أوشكنا على ولوج الألفية الثالثة ولا يزال العالم (المتمدن) يعطي الأولوية في مقدمة إنتاجه الصناعي للإنتاج الحربي على اختلاف أشكاله وأنواعه من أسلحة دمار شامل وطائرات من دون طيار كي ترمي القنابل على أجساد الأبرياء، فضلاً عن الأسلحة الخفيفة التي ترسل إلى الإفريقيين ليقتلوا بعضهم بعضاً في حروب قبلية لا أول لها ولا آخر. لن ينسى العالم مذابح رواندة والكونغو ولايبريا وسيراليون والصومال والسودان الذي لا يزال ينزف جراء المجازر الممتدة عقوداً بل قروناً طويلة، لن ينسى العالم الجثث المتفحمة للآلاف من أبناء العراق الأبرياء جراء القصف الجوي البغيض الذي قامت به طائرات العالم الذي يدّعي التمدن. الرئيسان الروسي والصيني يدعوان العالم إلى نظام اقتصادي أكثرعدالة وإنسانية فيما تزدحم سجون التعذيب في بلديهما بسجناء الرأي. الصوماليون غدوا شعباً بلا دولة ولا قانون، أطفال أفريقيا يموتون بالآلاف كل يوم بسبب انعدام الغذاء والدواء فيما يبدد زعماؤهم ثروات بلادهم في مقايضة السلاح كي يؤمنوا به سلطتهم المستبدة، الإرهابيون زرعوا الرّعب في كل مكان ولا يزال خطرهم يستفحل كل يوم، الاتجار بالأطفال، تفشي الأمراض والمجاعات بسبب الجفاف وتراجع منسوب المياه الصالحة للشرب!

أين هي الحلول التي يتشدق بها الزعماء في منصات المؤتمرات

العالمية والبرلمانات ومجالس النواب؟ أين هي الأديان التي حضت على الحب والتراحم بين أبناء الجنس البشري؟

إنني أرى كل ماتعلمه الإنسان عبر مسيرته الطويلة عديم الجدوى ما لم يجعله قادراً على أن يكون إنساناً حقيقياً لا وحشاً يتحكم فيه الطمع والأنانية والفردية كما يحدث الآن تحت غطاء المدنية والحضارة والدين وحماية المستضعفين! وكلها أكاذيب من أجل السيطرة وتحقيق المآرب الذاتية!!

إن العالم غارق في وحل من الفوضى والضياع وبحاجة حقيقية وملحّة إلى قيادات ملهمة ومؤهلة تأهيلاً أخلاقياً وإنسانياً في المقام الأول لانتشاله من ذلك الوحل المتعفن.

# سفر في جسد امرأة

صعدت إلى شقتها عند الساعة التاسعة مساء كما طلبت هي مني، دخلت مباشرة ودون أن أطرق الباب كعادتي. وجدتها على غير العادة بثوب نومها الشفاف العاري الكتفين والصدر، شعرها مرفوع إلى أعلى وملفوف على شكل دائرة حلزونية، وجهها خال من أي أثر لماكياج ومع ذلك بدت أحلى وأعذب من أي وقت مضى. جلست قبالتها، كانت منشرحة دون تكلف وهي تناولني كأس الكونياك، تسألني عن تفاصيل ما حدث معي خلال اليوم وأنا أجيبها وقد انعكس مزاجها الطيب على مزاجي، واندفعت هي أيضاً تخبرني بمرح عن أحداث طريفة حدثت معها، أشخاص التقتهم، مهام أنجزتها. ثم أدارت بواسطة الـ (الريموت كونترول) جهاز الـ (سي دي بلير) فانساب صوت فيروز كما ينساب الماء الرقراق على الجدول:

ياطير يا طاير على أطراف الدني
لو فيك تحكي للحبايب شو بني
يا طير... يا طير...
روح اسألون عاللي وليفو مش معو

مجروح بجروح الهوى شو بينفعو
موجوع ما بيقول عاللي بيوجعو
وتعنّ عابالو ليالي الولدني
يا طير...

أدهشني صوتها وهي تردد كلمات الأغنية مع فيروز بإحساس صادق وكأنما كلمات الأغنية قد أيقظت في داخلها ذكرى حبيب مفقود. في السابق كنت أسمع تلك الأغنية دون أن أتبين كلماتها جيداً، فأستمتع بصوت فيروز والموسيقى الجميلة دون التركيز على الكلمات ،ولكنني الآن أمعن في كلمات الأغنية بصوت هبة فتتكامل متعتي وتتكثف حين أنظر إليها وهي رافعة ذراعيها وترقص بنصفها الأعلى على الطريقة الشرقية فينكشف إبطاها منزوعا الشعر، لا بد أنهما يفوحان بشذى أنوثتها الذي هو أقوى وأعذب من رائحة المسك! كم أشتهيها، أشتهيها بكل ما أملك من طاقة اشتهاء، أشتهي أنفاسها... عرقها... لعابها... أريجها السري...!

وفجأة سمعت صوتها يتردد في مسامعي كصدى الأبدية:

– إيه، وين رحت يا حسام؟

كنت قد سافرت بعيداً في جسدها الذي بدا لي مثل جزيرة مترعة بالخيرات نائية في بحر بلا شواطئ فيتعذر على أي كائن مهما بلغ من جرأة وشجاعة وذكاء الوصول إليها وقطف ثمارها. وخفت أن تكون هي قد لاحظت هيامي في تفاصيل جسدها البديع البعيد جداً عني رغم قربه الشديد! قلت بسرعة وصدق:

– فيروز رذاذ لا يكف عن التناسل، كلما سمعت صوتها أحسست بمزيد من التفاؤل والرغبة في الحياة، صوتها يبشرني بغد أجمل، وهي التي منحتني الصبر على العيش بلبنان!

تبتسم هي بمرح وتهز رأسها علامة على تأييد كلماتي، وتقول وعلامة ظفر ترتسم على محياها:

– لقد التقيتها وصافحتها ثلاث مرات!

قلت لها:

– يا لك من محظوظة، فمن التقى فيروز فقد التقى ملاكاً!

وأضفت:

– لوكنت مكانك لما غسلت يدي التي عانقت يد فيروز ولما لمست بها شيئاً آخر، كي لا يزول عنها عطر فيروز وسحر فيروز وطهر فيروز...!

ضحكت هي ضحكة ناعمة غير متكلفة وهبت واقفة أمامي، أتأملها كما أتأمل كائناً خرافياً هبط تواً من كوكب آخر. سارت عبر الممر المؤدي إلى غرفة نومها، أنظر إلى قفاها فأزداد تأججاً وشهوة. عادت بسرعة كما لو استدارت قبل بلوغ هدفها. قالت وهي تمد إلي إصبعاً مثل إصبع معجون الأسنان:

– هذا هو الكريم الذي طلبته.

كنت قد نسيت حواري الأخير معها عن أن الدلك سيكون أفضل لو أنه تم بواسطة زيت أو كريم، ولم أتوقع منها استجابة بهذه

السرعة. قرأت على طرف الإناء عبارة مكتوبة بالإنكليزية تقول «body massage»

- بد يّاك تعملي دلك ياخد كل وجع بدني ويردلي عافيتي.

وهتف هاتف بداخلي: ستتعرى إذن من ثيابها أمام...! وقبل أن يكتمل النداء الخبيث في داخلي رأيتها ترفع طرف قميصها الشفاف أعلى ساقيها وتمسك ذيله بأطراف أصابعها ثم تحني ظهرها قليلاً وتدفع الثوب عبر عنقها لتبقى فقط بالسروال الداخلي وحمالة الصدر الملتصقين بجسدها. يا لبياضها الرخامي، يا للجسد المشدود الخالي من التجاعيد والأخاديد يا لعريها الهائل! أحسست بأني أتصبب عرقاً في داخلي، حلقي يجف بلا عطش، أرتجف بلا خوف، أحترق بلا نار، أحلق بلا أجنحة، هي الرهبة التي أسقطني في هوتها ذلك العري الجبّار... تلك التكورات الراعشة النابضة ذات العطر والنداءات السرّية...!!

# هذه بيروت

في أحد أيام التسكع قادتني قدماي إلى المبيت عند صديقي مصطفى أنور، الذي يعمل ناطوراً في بناية بساقية الجنزير. كان ليلاً شديد العتمة بسبب انقطاع التيار الكهربائي جرّاء الغارات الجوية الإسرائيلية التي استهدفت محطات التوليد الكهربائي بشكل أساسي.

الدروب صامتة، البيوت صامتة، الأشجار صامتة، وأنا أسير وحيداً، لا أسمع سوى صوت الانفجارات المدوية وصفارات الإنذار. تحطم جسر الكولا الذي يعدّ واحداً من معالم بيروت، سقط عشرات القتلى في قانا وآخرون لا يزال البحث جارياً عنهم تحت الأنقاض، فضلاً عن الذين نقلوا إلى المستشفى بجروح خطيرة. بربرية أعادت إلى ذاكرة اللبنانيين سنوات الحرب العجاف وما تبعها من اجتياح ومذابح في المخيمات الفلسطينية، وكالعادة...صمت عربي مطبق يليه عقد قمة طارئة للرؤساء العرب يتوالون خلالها على منصة الشجب والإدانة ثم يركب كل منهم طائرته عائداً إلى بلاده، فيما يقف العالم متفرجاً مدّعياً الحياد أمام أجهزة الإعلام بينما يدعم ويبارك العدوان في الخفاء...!!

طرقت الباب ففتح في الحال. وفي اللحظة التي خطوت فيها إلى الدّاخل أحسست بشخص يخطو على أثري. كانت لحظة أشبه بكابوس! إذ لم يكن شخصاً واحداً كما ظننت، بل كانوا مجموعة تزيد على السبعة أشخاص. تبينت وجوههم الشريرة بواسطة ضوء شمعة يرفرف في ركن الغرفة الصغيرة. هيئتهم مثل أولئك الأوغاد الذين غدروا بي وكادوا يلقون بي في قاع الهاوية. وانقضّ أحدهم على مصطفى بصفعة على وجهه، فيما أخذ آخر يبحث في الحمام والمطبخ وتحت السرير، وبقيتهم يهدّدون ويتوعدون، وفجأة أسمع صراخ امرأة في المطبخ! كانت حركاتهم خاطفة وسريعة كما لو تدربوا عليها قبل مجيئهم. أراد مصطفى الدفاع عن الفتاة فتصدى له ابن خالته الذي كان حاضراً ومنعه وهو يصرخ بعصبية: (دعهم يأخذونها ويذهبون!). وبالفعل دفعها أحدهم إلى خارج الغرفة بعد أن كال لها ما كال من الصفعات والإهانات. ثم تبعوها جميعاً بسرعة وأركبوها حافلة وانطلقوا بعيداً عن المكان. لقد فهمت الموقف دون أن يشرحه لي أحدهم، إذ لم يكن بحاجة إلى شرح، كانت المرأة صديقة الشاب الذي صفع مصطفى وأراد أن يتعارك معه، وقد هجرته لأنها أحبت مصطفى وأرادت العيش معه، غير أن صديقها كان لها بالمرصاد. إنها سريلانكية ومصطفى ناطور سوداني وكلاهما لا حول له ولا طول أمام عشيقها السوري ورفاقه الذين كانوا متأهبين لفعل كل شيء لاستردادها كما حذرت هي مصطفى من قبل. لقد سمعت الكثير من القصص المفزعة

التي حدثت ولا تزال تتكرّر كل يوم مع المستخدمات الأجنبيات على مرأى ومسمع رجال الأمن والمسؤولين وأجهزة الإعلام، عن خادمات تم جلبهن بعقود للعمل بشروط مرضية ومجزية لهن، فإذا بهن يفاجأن بشروط أخرى ممعنة في استغلالهن في بيوت مستخدميهن، يعشن أوضاعاً أشبه بتلك التي عاشها الأرقاء في زمن مضى. فمنهن من ضربن وطردن بعد منتصف الليل لأنهن طالبن بمعاشهن فقط لا أكثر! ومنهن من اغتصبن، وأخريات زج بهن في السجون بتهمة السرقة! والواقع إنهن لم يسرقن ولم يخن أمانة، بل رفضن أو قاومن محاولة اغتصاب من قبل مستخدميهن المتنفذين، فأراد أولئك الأوغاد الظلمة درء الفضيحة بتلبيسهن تهمة السرقة والرمي بأجسادهن البريئة في غياهب السجون. كان بعضهن يلجأن إلى أحضان الغرباء المغلوب على أمرهم مثلهن ليبادلنهم الحنان الذي طالما افتقدنه وحلمن به بعد رحلة من العبودية والاستغلال الوحشي. كنا نسمع كثيراً ونرى كثيراً حالات جنون وانتحار واختفاء. وذات مرة ذهبت لزيارة عصام، ألفيته جالساً داخل قبوه الصغير أسفل البناية على غير عادته. عادة يجلس الناطور أمام مدخل البناية لاستجواب الغرباء قبل أن يسمح لهم بالدخول أو منعهم في حال شكّ في أمرهم. كان متجهّم الوجه وسارحاً بخياله بعيداً كما لو أصابته مصيبة، لربما وصلته أنباء من...! سألته: (ماالخطب؟) روى لي قصة عجزت عن تصديقها في بادئ الأمر، إذ إنها أقرب إلى قصص أجاثا كريستي ودون كيشوت وجيمس بوند منها إلى عالم الحقيقة: كان

يعمل في البناية المقابلة لبناية عصام بمنطقة الظريف ناطور سوداني يدعى متحت، وسيم ذو بشرة حنطية اللون وشعر ناعم مجعّد. فكرت أنه مصري حين التقيته أول مرة في غرفة عصام، ولكن لهجته السودانية وحكاياه المنطلقة عن مدينة ود مدني، كشفت لي عن سودانيته، ربما يكون من مخلفات الاستعمار مثل أمي القادمة وعائلتها من قرية نقادة ضمن الإرساليات المسيحية، ثم فضلوا البقاء في السودان على العودة إلى مصر بعد خروج الإنكليز. فمثلهم كثيرون، بعضهم أثرياء يسكنون في الأماكن الراقية ويتأففون من الاختلاط بالسودانيين، ولكن غالبيتهم العظمى فقراء يعيشون في الأحياء الفقيرة ويتزاوجون مع السودانيين كما حدث مع أمي. كان متحت شديد المرح ويبدو عليه الذكاء عندما يطلق للسانه العنان بحكاياه الغريبة وأسفاره وتنقلاته الكثيرة بين مدن السودان وعشيقاته وأصدقائه، لم أكن أصدق ما يقول. كنت حين أسمعه أتذكر قريباً لي من ناحية أمي له ملامح متحت وحركاته نفسها، كان يحكي لنا عن أشياء غريبة حدثت معه، أناس التقاهم، أماكن زارها ولم نكن نعاني كثيراً كي تكتشف كذبه، إذ كان يعود بنفسه ليقول كلاماً مناقضاً لكل ما قاله قبل لحظات. هكذا بدا لي متحت، ولكنني تراجعت عن حكمي عليه بعد القصة العاصفة التي رواها لي عصام عنه، والتي لم يمر يومان على حدوثها. أخبرني بأنه قد تم القبض عليه بتهمة ارتكاب جريمة بشعة ضد شاب حبشي. وعندما ذكر لي اسم الشاب الحبشي تذكرته في الحال، فقد كان شقيقاً لأبابا الجميلة التي كان يغدق عليها

عشيقها اللبناني العجوز الهدايا والمال. وقد جدّت في البحث عن عمل لأخيها دون جدوى وحين غلبت على أمرها عرضت مبلغاً من المال يزيد على ألف دولار لمتحت في مقابل ترك البناية ليعمل أخوها في موقعه كناطور، فوافق متحت، واستلم المبلغ المتفق عليه عدّاً ونقداً بحضور شقيقها، وحدّد له اليوم الذي سوف يقدّمه إلى وكيل البناية بعد أن يقنعه بأنه سيسافر لرؤية أمه المريضة في السودان ويعود لمزاولة عمله على أن يملأ الشاب مكانه إلى أن يعود. تلك هي الخطة التي أبرمها متحت مع أبابا وشقيقها. وعندما جاء الموعد المنتظر وحضر الشاب كي يتسلم غرفته وعمله الجديدين، استقبله متحت بكل لطف وأدخله الغرفة وأوصد بابها من الداخل ثم انقض عليه بسكين وقطعه أشلاء ثم قام بحشره في أكياس الزبالة وانتظر إلى أن أظلم الليل فوضعه على عربة الزبالة ذات العجلات الثلاث، ثم دفعها أمامه خارج البناية حيث رمى بالأكياس المعبأة بجثة الشاب في برميل النفايات، كما لو كان يقوم بعمله الروتيني اليومي! وعندما جاءت أبابا لتتأكد أن الأمور قد سارت على ما يرام وأن أخاها قد تسلم بالفعل عمله وغرفته كناطور، نفى لها متحت مجيء أخيها، بل أكدّ لها أنه لم يره مذ لقائه يوم الاتفاق الذي أبرمه ثلاثتهم! ذهبت تبحث عنه في كل مكان بدءًا بأصدقائه القليلين وانتهاء بأقسام الشرطة والسجون دون أن تعثر له على أثر. وقد فعل عشيقها السري ما في وسعه بواسطة أصدقائه بجهاز أمن الدولة فلم يعثروا على أية علامة توحي بوجوده. في نهار اليوم التالي وقبل

مجيء سيّارة القمامة، أخذ المارة والسّكان على السواء يتهامسون عن وجود رائحة كريهة فوق ما هو معتاد دون أن يحددوا مصدرها، وقليلاً قليلاً أخذت الرائحة تتفاقم وتشي بمكانها إذ لاحظ السكان من خلال شرفات منازلهم أن المارة يسدون أنوفهم وتظهر على وجوههم آثار التقزز فيما هم يمرون بمرمى النفايات.

وعندما جاءت سيارة البلدية لأخذ النفايات كعادتها، انتشرت الرائحة الكريهة بشكل أثار ريبة عمال النفايات، فأوقف السائق عملية التفريغ وأمر مرافقيه بنبش القمامة لمعرفة مصدر تلك الرائحة العجيبة، وبعد لحظات قليلة من النبش عثرت يد أحدهم على كتلة من اللحم بأحد الأكياس، وعندما قام بفتح الكيس وقعت عيناه أول ما وقعتا على رأس بشرى مضمخ بالدم المتخثر! وفي الحال حضرت سيارات الشرطة وأخذت الجثة الممزقة بعد إجراء روتين رسم ومعاينة مكان الحادث. وفي المساء تم القبض على متحت بعد أن تعرفت أبابا إلى جثة أخيها من خلال رأسه المفصول عن بقية البدن الممزق. ولا يزال التحقيق جارياً مع متحت الذي عثرت الشرطة في غرفته على كمية من الجواهر والعملات الأجنبية ومسدساً محشواً بالأعيرة النارية.

بعد تلك الحادثة بأيام قليلة سمعنا بمقتل عبد العزيز، ذلك الشاب السوداني الطيب الذي يعمل ويقيم ببيروت الشرقية، حيث مثل القاتل بجثته بعد أن قام بذبحه في غرفته أسفل البناية. وسمعنا فيما لا يزيد عن أسبوع من قتل عبد العزيز، سمعنا بفجيعة انتحار أبابا التي لم تحتمل

صدمة رؤية جثة أخيها الممزقة، فسقطت ضحية لانهيار عصبي أفضى بها إلى شنق نفسها في حمّام الشقة التي تقطنها مع عدد من رفيقاتها الأثيوبيات.

# الرجل اللغز

كنت جالسا أمام مدخل البناية حين وقفت سيارة كاديلاك حديثة الصنع أمامي ونزل منها رجل عجوز يعتمر شالاً وعقالاً ويرتدي جلباباً ناصع البياض وينتعل حذاء أسود شديد اللمعان. كان بصحبته شابان لبنانيان حسنا الهندام، أحدهما يحمل حقيبة ديبلوماسية والآخر حقيبة سفر. نظر إليّ باهتمام وسألني:

- أنت الناطور الجديد؟

هززت رأسي إيجاباً وانتصبت واقفاً. فالرجل تبدو عليه هالة من تلك التي تحوم حول رجال السلطة والمال. تقدم نحوي وصافحني وقال:

- معظم موظفي مصرفي في جدة والدوحة ودبي هم من السودان وأنا أحب السودانيين! ثم أدخل يده في جيب جلبابه وأخرج ورقة مالية وحشرها في جيب قميصي وابتعد دون أن يضيف كلمة أو يسمعني أقول له كلمة شكر. رأيتهم يصعدون إلى الطبقة الثامنة ويدخلون إلى شقة مدام هبة الصراف. من يكون هذا الرجل الذي تفوح منه رائحة السلطة. لهجته وثيابه

تشيان بأنه خليجي، ولكن من أي بلد؟ لقد ذكر ثلاثاً من أهم المدن الخليجية دون أن يخبرني إلى أي منها ينتمي؟... وما هي علاقته بمدام هبة؟ هل هو شريكها في أعمالها، هل هو زوجها؟ أم...أم يكون عشيقها؟! تساؤلات كثيرة دارت بذهني. ثم رأيت الشابين يعودان بعد أن أوصلاه إلى الشقة، ثم يغادران البناية بالسيارة نفسها التي أتى بها ثلاثتهم.

وفي صباح اليوم الثاني، رأيتهما يغادران هو ومدام هبة التي حيتني بمظهر جدي على غير عادتها. عادا وقت الظهيرة ثم خرجا مرة أخرى عند مغيب الشمس ولا أدري متى عادا لأنني كنت قد أغلقت بوابة البناية الرئيسة عند الساعة الحادية عشرة كالعادة، واستسلمت للنوم بعد أن تصفحت عدداً جديداً من مجلة الفصول الأربعة. وقد ظلا على تلك الحال مدى الثمانية أيام التي قضاها الرجل بصحبتها، إلى أن غادر بالسيارة نفسها وبصحبة الشابين اللذين حضرا معه عند مقدمه. وقف أمامي قبل أن يصعد السيارة وهو يحشر ورقة مالية في جيبي بالطريقة نفسها الأولى:

- في رعاية الله يا سوداني، نشوفك على خير!

ظل فضولي متأججاً بشأن الرجل الذي لم أعرف عنه شيئاً ولم أجرؤ على سؤال أحد عنه!

# المداهمة

تناولت حماماً بماء فاتر، وتعشيت عشاء خفيفاً من قطعة خبز محمص مضمخة بالزبد مع كوب حليب دافئ، واستلقيت على الفراش أتصفح عدداً جديداً من صحيفة السفير اليومية. كنت حينذاك أسكن ببناية أبي توفيق برأس بيروت، كانت شقتنا في الطبقة الثالثة، وكانت مكونة من ثلاث غرف وصالون وحمام وغرفة صغيرة بحجم حمام تطل على المطبخ. كان معظم قاطني الشقة صوماليين يحتلون الصالون يليهم نحن السودانيون ونحتل ثلاث غرف، اثنان في غرفتين منفصلتين هما محمد أبو اسكندر الطالب بالجامعة اللبنانية قسم العلوم السياسية وعيسى زكريا الذي يحتل غرفة أشبه بقبو، فيما أحتل أنا برفقة قاسم ومحمد غرفة، ثم جزائريون يحتلون غرفة ملاصقة لغرفتنا. كنت قد التقيت محمداً وقاسماً بمنزل الشباب بعائشة بكار في بدايات أيامي بلبنان، وسرعان ما توثقت صلاتي بهما وصرنا أصدقاء. أما محمد أبو اسكندر وعيسى فلم التقهما ولم أعرفهما من قبل إلا في شقة أبي توفيق، الأول مغالٍ في تعاليه وترفعه ومع ذلك صرت أنا وهو صديقين! والثاني لم يكن ثمة تواصل بيني وبينه سوى حق الجوار

بين سودانيين التقيا في الغربة. كانت الأمور تسير بهدوء في الشقة عدا الصخب الذي يثيره الصوماليون المكدسون في الصالون، يثيرون زوبعة وفوراناً دون أن يقيموا وزناً لاحتجاج جيرانهم أو رجائهم لهم بأن يهدأوا، إلى أن تيقنا أن تلك هي طريقتهم وطابعهم ومن العبث أن نحاول تعديل سلوكهم الآن. قضيت شهراً كاملاً في تلك الشقة إلى أن أسعفني بو فادي بوظيفتي الجديدة كناطور. كان شهراً لن أنساه ما حييت، اسميته شهر الطرائف والمفارقات. أشياء تحدث يضحك لها المرء ويبكي في آن واحد! خصوصاً تلك التي ظلت تصدر من محمد أبو اسكندر وعيسى زكريا. سأبدأ بالأول لأنه الأكثر غرابة أطوار. كان يصف سكان الشقة بأنهم عمال جهلة يعانون نقصاً في الثقافة وتحضر السلوك، وأنه لولا انقلب عليه الدهر لما أقام معنا نحن الذين نقضي يومنا في أعمال هامشية لا نجني من ورائها سوى المزيد من الفقر والخذلان. وذات يوم نادى كل من في الشقة، رغم ما يكيله لهم من استهزاء، واجتمعنا جلوساً أمامه في صالة الزوار لنرى ما الخطب. شرع يخطب بشكل جدي واصفاً بعض رؤساء الأحزاب والقيادات السياسية بالنفاق والعهر السياسي، قال إنهم قد سرقوا خطته لإطاحة نظام مايو وخلع الطاغية نميري وإعادة سلطة الشعب، وإنه الآن بحاجة إلى دعمنا ومساندتنا حتى لا تسرق خطته الجديدة لإطاحة نظام البشير ـ الترابي فيتكرر سناريو المرة الفائتة! تفرّق الشباب إلى غرفهم دون أن يمهلوه ريثما يكمل خطبته، بقينا أنا وهو وحدنا في الصالة. انتظرته إلى أن أنهى حديثه وبادرته بالقول:

- إنني أقف معك بقوة وأشد من أزرك وأساندك حتى الرمق الأخير حتى أراك زعيماً وقائداً لكل القارة الأفريقية وليس السودان وحده...أنت يا من ستخلف مانديلا في زعامة قارتنا السمراء. قلت ذلك دون أن أعلم أنه سيأخذ كلماتي مأخذ الجد. صرت منذ ذلك اليوم صديقه المفضل، يطرق باب غرفتي ويستأذن محمداً وقاسماً بأنه يحتاجني في بعض المشورة، فأتبعه وضحكات محمد وقاسم المكتومة تداعب أذني! أجد الشاي بالحليب والنعناع مع البسكوت المحشو بالكريما والشوكولا جاهزين. ثم ندلف مباشرة إلى أحاديث السياسة، فيدهشني بثقافته السياسية الواسعة، يتحدث بتلقائية عن النظم الدولية ومشاكل التنمية والتعليم والصحة ونزع أسلحة الدمار الشامل وتفشي الأمراض والمجاعات والأمية والتطرف الديني والإرهاب والنزاعات القبلية وما ينجم عنها من نزوح ولجوء. كان يضع المقارنات ويدلل على صحة حديثه بالإحصائيات مستعيناً بقصاصات من صحف ومجلات وكتب. كان عندما يبدأ الحديث تتلبسه هالة من الجدية وكأنه يلقي خطبة أمام جمهرة من الناس، قوة في صوته وإشارات بكلتا يديه، عيناه تغمضان وتنفتحان بحسب قوة العبارة وأهميتها، فمه يزبد عند طرفيه. فكرت بأنه لم يكن يمثل، بل كان ينسى نفسه وموقعه كطالب في السنة الأولى

بقسم العلوم السياسية، ليتنامى بداخله الإحساس بأنه زعيم سياسي كبير مثل ناصر وغاندي. كانت غرفته عبارة عن مخزن للكتب السياسية. أخبرني صديقه اللبناني عمر طبارة أنه – أبو اسكندر– طرد من الجامعة بتركيا لأنه رسب في كل الفرص التي منحت له لاجتياز امتحانات السنة الأولى. وأن ماحدث له بتركيا قد يتكرر معه هنا أيضاً، فهو بهذه السنة يكون قد قضى ثلاثة أعوام بالسنة الأولى، وأنهما يشحذان قواهما لاجتياز امتحانات المرور للصف الثاني، حيث لم يبق أمامهما سوى شهر ونصف شهر من الآن، وقد التقيت عمر صدفة بشارع الجامعة الأميركية بعد انقضاء المدة التي أشار إليها ليفاجئني بأن أبا اسكندر قد رسب وخسر الفرصة الأخيرة التي بقيت له!

أما عيسى زكريا فقصته لا تقل غرابة عن قصة محمد أبو اسكندر. سأروي بعض المواقف التي جعلتني أشك في سوية عقله: التقينا أنا وهو ذات يوم في المطبخ المشترك بين كل ساكني الشقة. كان هو يقوم بصنع حسائه الخالي من البهاروالملح كما نصحه الطبيب. وكنت أنا قادماً من فوري من الخارج حاملاً زجاجة عرق، فمررت بالمطبخ لأخذ بعض مكعبات الثلج من البراد، في الغالب كنت أشرب في البلكونة لأن قاسماً ومحمداً رفيقي في الغرفة لا يشربان الخمر، وكنت شديد الحرص بأن لا أسبب لهما أي نوع من الإزعاج. حييت عيسى المنهمك في وضع حسائه، فردّ على تحيتي دون أن يرفع عينيه عن الإناء الذي يغلي على الموقد، وسألني عن الشبان السودانيين السبعة الذين

تم القبض عليهم لتكتشف شرطة الدرك تورطهم مع عصابة متخصصة في سرقة السيارات، وتمهلت قبل الرد عليه لأنني لم أكن ملماً بتفاصيل تلك الحادثة التي شغلت كل السودانيين المقيمين بلبنان. وفي اللحظة التي رفع عينيه لمواصلة حديثه رأى زجاجة العرق في يدي اليمنى. رأيت عينيه تشخصان وينقلب إلى شيخ ورع ويردد عبارات الاستعاذة والبسملة وكأنه رأى شيطاناً ماثلاً أمامه، ثم يتجه نحو القبلة ويرفع يديه إلى السقف ويدعو لي الله أن يغفر لي ويهديني إلى الصراط المستقيم وقد تلبسته حالة من الخشوع والرهبة إلى أن دمعت عيناه. ولم أقل أو أفعل شيئاً سوى الانسحاب إلى غرفتي وتركه وحيداً مع استعاذاته وأدعيته بالهداية.

وذات يوم وفيما كنت جالساً في الصالة أقرأ نشيد الأناشيد من الكتاب المقدس أحسست بشبح واقف أمامي... يتأملني، رفعت رأسي كي أتبينه فإذا به عيسى شاخص البصر إليَّ بالطريقة نفسها التي رأيته عليها في المطبخ حين لمح زجاجة العرق في يدي:

- ماذا تقرأ؟
- أقرأ الكتاب المقدس.

ورأيت حالة الخشوع تنقلب في وجهه إلى غضب كما ينقلب الموج على صفحة بحر:

- أقسم بأنك ستجلب لنا صاعقة من السماء تحرقنا وتحول أجسادنا إلى رماد في هذا المكان، ألا يكفيك أنك سكير ونجس، تريد الآن أن تجاهر بكفرك؟

واستمر عيسى يلعن ويرغي ويزبد إلى أن خرج كل الشبان من غرفهم مستغربين ومستفسرين عن سبب الضجة.

- ماذا فعلت لك، لم تصفني بالكفر؟

وبدلاً من أن يجبيني على سؤالي ازداد تهيجاً وانفعالاً:

- أتسألني عن سبب غضبي وأنت تعلم جيداً أن القرآن قد دعا جميع العالمين إلى اتباع خاتم الأنبياء وسيد المرسلين!

وقد يأتيك مسيحيّ ويؤكد لك بآيات من الإنجيل أن سيدنا المسيح هو اليقين وحامل لواء رب العالمين! ثم إنه جاء في القرآن ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ وجاء أيضاً ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ والآيتان خير دليل على حرية المعتقد في الإسلام. قلت ذلك وانتظرت ردة فعله. رأيته يدنو مني، ظننت أنه ينوي ضربي فإذا به يخطف الكتاب من بين يديّ ويطلب من الشبّان طردي من الشقة! وفجأة التفت الجميع إثر سماعهم صوت أبي اسكندر وهو قادم من غرفته:

- ومن أنت أيها المنافق كي تأمر بطرده من الشقة؟

عم الصمت الحاضرين، رأى الشبان أبا اسكندر يمد يده وينتزع الكتاب من بين يدي عيسى ثم يعيده إلي وهو يقول بصوت قوي واثق:

- إقرأه جيداً لأنني أنوي مناقشتك في الأجزاء التي يزعم فيها اليهود أن الله هو من أمرهم بعد أن تم لهم الهرب من قبضة فرعون مصر بغزو بلاد الفلسطينيين والكنعانيين وغيرهم من شعوب أرض كنعان ثم الاستيلاء على أرضهم ونسلهم!

ولم أجب على أبي اسكندر سوى بابتسامة رضا على موقفه النبيل حيالي، ولم أقل له إنني لا أقرأ من الكتاب المقدس سوى نشيد الأناشيد ولا أقرأ من القرآن سوى سورة الرحمن فقط، وإن أبي وأمي المختلفين دينياً قد قرّرا أن يربياني على الأخلاق النبيلة ويتركا لي الخيار فيما يخص انتمائي الديني عندما أكبر وأصبح ناضجاً، وكبرت ولم أختر أي دين، عدا أنني أتعاطف مع المسيحيين لكون أمي وعائلتها مسيحيين، وأما علاقتي بالإسلام فتعود إلى نشأتي في بيئة إسلامية من ناحية وإعجابي الشخصي بأخلاق النبي الكريم محمد من ناحية أخرى، تلك هي علاقتي بالأديان، لم أذهب إلى الكنيسة التي تواظب أمي على الذهاب إليها للصلوات دون انقطاع، كما لم أذهب إلى مسجد رغم أن أبي يواظب على أداء فريضة الجمعة فيه بشكل ثابت. وما ساعدني على البقاء على هذا الوضع الغريب في بيئة إسلامية هو أن المجتمع السوداني ذا الخليفة الصوفية، هو مجتمع متسامح بطبعه ويكن محبة خالصة (للنبي) عيسى وأمه مريم ولا يذكرهما إلا بمشاعر حب صاف، ولهذا السبب يكثر اسما مريم وعيسى بين أفراد الشعب السوداني، خصوصاً مريم، فلا يكاد بيت أو عائلة سودانية تخلو من اسم مريم، إن لم تكن الابنة أو الأخت أو الأم فتكون الجدة من ناحية أحد الأبوين. ولكن الآن الوضع قد تغير كثيراً، لا أدري كيف استطاع هؤلاء اللئام زرع روح الهوس والتعصب بين أفراد هذا الشعب الطيب السمح. لقد وصل الأمر إلى أن تهاجم جماعة متدينة جماعة أخرى أكثر منها تديناً

في المسجد وتقتلها بالأسلحة النارية فيما كان أفرادها يصلّون! وأن يتسلل أحدهم إلى دار اتحاد الفنانين وينهال على المطربين المجتمعين طعناً عشوائياً بواسطة سكين حادة إلى أن أودى بحياة أحدهم وكاد يقضي على الآخرين لولا مقاومتهم الجسورة له إلى أن وصل رجال الأمن، فضلاً عن تضييق الخناق على المواطنين بما أسموه جمعيات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر...! لا أدري كيف تم ذلك... كيف تسلل هذا الظلام وكيف تمكن من حجب الشمس على هذا النحو وهذا المدى الطويل الذي بدا وكأنه باق إلى الأبد...!

نظر أبو اسكندر إلى عيسى بمزيج من السخط والاحتقار وقال له:

- إذا رأيتك تتعرض لهذا الشاب ومضايقته مرّة أخرى فسوف أجعلك تدفع الثمن غالياً، هل فهمت أم أنك بحاجة كي أعيد لك قولي؟

وهز عيسى رأسه بالإيجاب فيما هو يتلقى أمر أبي اسكندر بأن يبارح المكان إلى غرفته فوراً، ففعل عيسى دون أن ينبس ببنت شفة، وتفرق بقيّة الشبان إلى غرفهم وانتهت الضجة، ولكن بقي سؤال عالقاً في ذهني كما من المؤكد أنه عالق بأذهان كل الشبان الذين شاهدوا ذلك الموقف: «أي سلطة وأي حق ذاك الذي مكّن أبا اسكندر من قهر عيسى على هذا النحو المذل؟»، لا بدّ أن ثمة سراً بينهما! أيكون فعلاً أبو اسكندر هذا زعيماً كبيراً متنكراً في هيئة طالب معتوه؟!!

في الأمسية نفسها وفيما كنت أتصفح جريدة السفير كما أسلفت،

وبينما قاسم ومحمد يشاهدان النشرة من خلال التلفزيون، سمعنا جلبة في الغرف الأخرى، هببنا واقفين لنتبين الأمر فإذا بدركيّين يباغتاننا وينقضان بطريقة مخيفة على قاسم ومحمد ،واجتاحتني موجة من الذعر لم أشعر بعدها بشيء سوى قدمي العاريتين تركضان هبوطاً على الدرج ومندفعاً بقوة صوب زقاق يفضي إلى كورنيش البحر، بينما شخص يطاردني، التفت إليه فإذا به دركي يوشك الإمساك بي، أزيد من سرعتي، أرى ظلّه المخيف قريباً مني، أسمع فرقعة حذائه على الأرض المعبدة فأزداد رعباً، الشارع ليس مظلماً تماماً رغم انتصاف الليل، فالمكان يعدّ واحداً من أهم المناطق السياحية بلبنان، حيث الفنادق والملاهي والأندية الليلية والمطاعم والمقاهي والحانات، وسيارات مهرولة نحو عين المريسة وأخرى نحو الروشة، أناس جالسون، أناس سائرون، أناس واقفون، كلهم يستمتعون بالبحر والليل والقمر، وأنا أجري خائفاً مرعوباً ودركي غاضب يجدّ في إثري ويوشك أن يمسكني كي ينتقم مني لما سببته له من عناء. لا أحد يهتم بنا، لا أحد ينظر إلينا. قرّرت ألا أستسلم، سأنفذ من أول زقاق إلى طلعة ساقية الجنزير حيث يقيم صديقي مصطفى، ولكنني أتراجع خوفاً من أن يصير هو أيضاً صيداً لهذا الدركي اللعين الذي يصر على مطاردتي كما يطارد لصاً. يبدو أنها حملة موجهة ضد الأجانب غير القانونيين. أجري وأجري، أجري دون خطة أو هدف أو أمل، والدركي العنيد خلفي لا يمل ولا يكل. وكم تمنيت أن يكون مستمتعاً بمطاردتي لا غاضباً، فالأولى

تقوّي احتمال الصفح عني، والثانية تضاعف انتقامه مني. يا رب... ماذا أقول لك وأنا لم أصلِّ لك في حياتي؟! يا إلهي، الدركي يلهث خلفي ويمد يده محاولاً الإمساك بقميصي، أزيد من سرعتي، أنحرف يميناً ويساراً فيفعل هو أيضاً مثلي فترتبك خطاه فيبطئ، ولكنني أشعر بضوء عربة يتراقص بالقرب مني متخطياً الدركي، التفت لأكتشف أنها سيارة شرطة وقد أصبحت بمحاذاتي، وقبل أن أتمكن من الابتعاد عنها يفتح بابها الأمامي بطريقة مباغتة ويضربني على جانبي الأيسر فأفقد توازني وأسقط على الأرض، ينزل منها دركيان بخفة ويحملانني ويزجان بي في المقعد الخلفي ثم يلحق بي الدركي مطاردي العنيد ويرشقني بوابل من العبارات التي يعف لساني عن النطق بها وكلها تصب في أمي وأختي، أنستني هول المفاجأة والمباغتة التي أخذوني بها وجعلتني أفكر في ضربه ثأراً لأمي ولكنني أتراجع خوفاً من العواقب الوخيمة، فهم ثلاثة وأنا وحيد بينهم، فضلاً عن أنهم يرتدون الثياب الرسمية وهذا سيضيف إلى جرمي كمتسلل إلى الأراضي اللبنانية (خلسة) كما يصفون المتسللين عبر الحدود السورية، سيضيف جرماً أشد عقوبة وهو الاعتداء على رجل أمن فيما هو يؤدي واجبه. وانحرفت السيارة عائدة من حيث ابتدأ الطراد... إلى بناية أبي توفيق. وجدت الرفاق محشورين في غرفة الصوماليين، جالسين على الأرض العارية مطأطئي الرؤوس وقد غمرهم الذهول، ودركياً يقف بباب الغرفة يحمل سلاحاً لا أدري من أي نوع ولكنه شبيه بالكلاشينكوف وعيناه تقذفان تهديداً ووعيداً

لكل من تسول له نفسه الفرار. فسحوا لي في المكان وأجلسوني بين رفاقي على الأرض. بعضهم ضحك ضحكاً مكتوماً لمنظري النافر المرعوب. بعد لحظات حضر ثلاثة دركيين وأعلنوا انتهاء المهمة.

- الكل يقف ع طولو.

هكذا صاح بنا أحدهم، وهو الوحيد بينهم الذي يرتدي ثياباً مدنية، وهو الذي يقوم بتوزيع التعليمات على رفاقه، فأدركنا أنه قائدهم، أمرنا بأن نسير في صف واحد إلى الخارج، نفذنا التعليمات في صمت. قسمونا إلى ثلاث مجموعات وحشروا كل مجموعة في سيارة كما تحشر الخراف. ثم انطلقوا بنا. بعد حوالى عشر دقائق من السير، توقفت السيارات وفتحت الأبواب ونودي بنا كي ننزل ففعلنا لنكتشف أننا أمام مخفر الطريق الجديدة الذي مررت به كثيراً وتسوقت من الدكاكين والأكشاك الواقعة بالقرب منه مرات عديدة. استسلم جميعنا للمصير المحتوم! السجن مدى شهر ثم الترحيل بعد ذلك إلى أرض الوطن، إلى الجحيم التي دفعنا أثماناً باهظة كي نهرب منها، الآن سنعود إليها نرسف في الأغلال كالمجرمين. كان معظمنا بثياب نومه فقط ولم نمنح حق استبدال ثيابنا البيتية بثياب تليق بمغادرة المنزل، بل إن بعضنا كان حافي القدمين وأنا أحدهم. أدخلونا غرفة خالية من أي قطعة أثاث، أرضيتها مبلطة بالإسمنت وعارية. تركونا نهباً للخوف واليأس والإحساس المقيت بالذل.

- ما هو شعورك الآن يا حسام!

كان ذلك صوت أبي سكندر ينبعث من أحد الأركان. لم أجب عن سؤاله، ولم يعد هو لسؤالي مرة ثانية. بعد لحظات دخل أحدهم وأشار إلى أحد الصوماليين كي يتبعه ففعل. لحظات أخرى وعاد الرجل وكرر الإشارة نفسها إلى قاسم، ثم توالى المشهد مع الجزائريين الثلاثة، ثم أنا. وجدت رجلاً يجلس إلى طاولة عليها دفتر مفتوح وبيده قلم، وسألني عن اسمي كاملاً فأجبته، فقيّده في الدفتر ثم أشار إلى إحدى الغرف وطلب مني أن أدخلها وأنتظر، ففعلت، وجدت رفاقي الذين سبقوني وقوفاً على أرض الغرفة العارية الضيّقة وعلامات قلق وخوف ترتسم على وجوههم، ثم توالى الباقون على الغرفة إلى أن اكتمل عددنا للمرة الثانية. ولم تمر دقائق قليلة حتى دخل علينا الرجل ذو الثياب المدنية يطلب منا الخروج والعودة إلى شقتنا. ظللنا صامتين ننظر بعضنا إلى بعض ولسان حالنا يسأل الرجل أن يعيد على مسامعنا ما قاله مرة أخرى لأننا لم نصدق ما سمعناه منه!

- شو...، ما بدكم تروحوا؟ بدّكم تناموا هون؟!

وما أن سمعناه يعيد تلك العبارات حتى أخذنا نركض يدفع بعضنا بعضاً نحو بوابة المخفر الرئيسة، وتواصل ركضنا شمالاً وجنوباً في الشارع العام بحالة تقرب من الهيستيريا. عندما وصلنا إلى شقتنا وجدنا أبا توفيق في انتظارنا، ليخبرنا بأنه هو من أطلق سراحنا بمكالمة هاتفية منه إلى أحد كبار المسؤولين بالدولة. قد يكون أبو توفيق صادقاً. وقد...! فمئات الشائعات قد انطلقت من النادي السوداني عقب تلك

الحادثة. ومعظمها يؤكد أنهم كانوا يبحثون عن أشخاص بعينهم ولم يجدوا واحداً منهم بيننا، لهذا السبب قاموا بإطلاق سراحنا، ولهذا السبب أيضاً تمت العديد من المداهمات للعديد من الشقق التي يقطنها سودانيون، وشائعة أخرى تؤكد أن أحد اللبنانيين المقيمين في البناية هو الذي قام بفتح بلاغ ضدنا لأنه يكره وجودنا بها. وكلها قابلة للصحة، فكل شيء كان جائزاً في تلك الأيام!

## رغبة... أم انتقام!!

وجدت عيسى أمام مدخل النادي السوداني يتضاحك وينظر إلى المارة، اقتربت منه لأحييه فانفجر ضاحكاً كما لو كان يؤدي مشهداً كوميدياً على خشبة مسرح. كان بطيء الحركات، وعندما فتح فمه ليحادثني انبعثت منه رائحة خمر نفاذة. كان واضحاً عليه السكر وعدم القدرة على التركيز.

- حسام...أين كنت يا صديقي، لقد بحثت عنك في كل مكان لكي أجعلك تشاركني في سعادتي الأولى والأخيرة بلبنان!

لم أستجب لاندفاعته المشبوبة التي عزوتها إلى سكره. فهو يعلم تمام العلم أننا لسنا صديقين، وأنني دائماً أحاول تجنبه، أكان ذلك في الشقة أم في النادي، وخصوصاً بعد أن كشف لي أبو اسكندر عن هويته الحقيقية. أخبرني أن اسمه الحقيقي هو محمد اسماعيل نور الدين، وأنه قد استبدله بعيسى حين قبضت عليه شرطة الدرك وألقت به في السجن، فأضرب عن الطعام مدى أسبوع كامل وأقسم ألا يأكل أو يدلي بأي أقوال إلا بحضور المفوض السامي لشؤون اللاجئين، وعندما حضر الأخير أمطره محمد بوابل من الأكاذيب، أخبره بأنه

في الأصل مسيحي الديانة، وأنه اضطر إلى تغيير اسمه إلى محمد كي يحظى بوظيفة حكومية، وقد تم له ما أراد، ولكن بعد مدة قصيرة من تسلمه وظيفته اكتشف أمره وزج به في السجن من قبل النظام الإسلامي الحاكم الذي يضطهد المسيحيين. والواقع أنه ليس مسيحياً، فهو من إقليم دارفور الذي يحفظ أهله القرآن في الخلوات منذ نعومة أظفارهم وقبل أن يبدأوا التعليم النظامي في المدارس، ولا يعرفون شيئاً عن المسيحية إلا ما يتعلمونه من خلال السور القرآنية، وأن والد محمد نفسه شيخ يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويدرّس الصبية العلوم الدينية في الخلوة. خلاصة الأمر أنه قبل التماسة من قبل مفوضية شؤون اللاجئين وأفرج عنه وعين له مبلغ شهري من المال لإعاشته! ذلك هو عيسى الذي قام بتكفيري وأثار عليَّ الصوماليين المتزمتين كي يرموا بي خارج الشقة حين رآني ممسكاً بالكتاب المقدّس. الآن أجده يترنح سكراً وهو الذي شخصت عيناه حين رأى زجاجة العرق في يدي! أي نفاق هذا؟ إنه يذكرني بالإخوان المسلمين الذين سطوا على سلطة الشعب في بلادي، وأخذوا يعظون الناس في المساجد نهاراً ويسرقون قوت المساكين ليلاً...!!

- هل تعلم ماذا فعلت اليوم يا حسام؟
- لا يا عيسى، لا أعلم، قل لي، ماذا فعلت؟
- لقد ضاجعت امرأة لبنانية!
- لبنانية؟!

- نعم...لبنانية!
- ولكن المرأة اللبنانية تعف عن السير مع رجل أسود على قارعة الطريق فكيف تطاوعها كبرياؤها المسرفة كي تتنازل وتشاركك في الفراش؟!
- أقسم لك إنني ضاجعت اليوم امرأة لبنانية!

ثم شرع عيسى يصف لي جسد امرأة بيضاء تميل إلى قصر القامة، مكتنزة الجسم ولها خال في بطنها بين السرة والعانة، حوراء العينين، واسمها، ليلى وأنها تعيش ببيروت، وإنه ما عليّ إلّا أن أصحبه الآن كي أراها وأضاجعها إن أردت وهو من سيدفع لها أجرها عني!

هيئته توحي بالصدق وهو يروي الحادثة ويصف لي جسد المرأة بتفاصيله الداخلية.

- ولكن قل لي، ماهو سر التغير الذي طرأ عليك يا عيسى؟ إنني أعلم أنك رجل متدين شديد الورع، تخشى الله وتتجنب ارتكاب المعاصي، خصوصاً المتعلق منها بالخمر والنساء!

أجابني بطريقة احتفالية وكأنه على علم مسبق بسؤالي:

- أولاً (إن الله غفور رحيم).
- ثانياً: إنها ليلتي الأخيرة في لبنان وأردت أن أذوق فيها طعم العسل اللبناني بعد أن تجرّعت مرارته على مضض قطرةً إثر قطرة مذ حللت بأرضه!

لم أكثر معه الجدال، فأنا أعرفه متزمتاً منذ لقائي الأول به. إنه

أراد فقط الاعتذار على إساءته لي من ناحية، وتبرير سلوكه المتناقض مع ادعائه التديّن من ناحية أخرى، فأخذ يتذرّع بحججه التي أكدت شكوكي حول قواه العقلية، ولا أدري كيف سيتسنى له العيش في بلاد لا مكان للمضطربين فيها سوى المصحات! واكتفيت بسؤاله عن سفره المزمع:

- وإلى أين ستشد الرحال يا عيسى؟

أجابني وعلامات الفرح قد ارتسمت على تقاطيع وجهه الثمل:

- إلى كندا، حيث سيعاد توطيني هناك مع عدد من العراقيين والصوماليين، سأصبح كندياً!

قلت له مهنئاً ومودعاً:

- هنيئاً لك، ولتصحبك السلامة يا عيسى.

قال وقد عاوده مظهره الجدّي:

- ألا تريد مضاجعة المرأة التي وصفتها لك قبل قليل، سأقوم بدفع أجرتها عنك.

قلت وأنا أهم بالانصراف:

- لا، أشكرك يا صديقي وأتمنى لك رحلة موفقة إلى وطنك الجديد كندا.

# وبكت أعماقي

المدى بيني وبينها يشتعل، يتقلص، يتمدد، يتفجر براكين من الشهوة. وأنا أبحر نحوها في الظلام يحف بي الألم وتصخب أعماقي المترعة عشقاً ورغبة. وجدتها مستلقية على الفراش وهي في كامل عريها الهائل، وضوء شمعة وحيدة يرفرف في ركن الغرفة ويتراقص على جسدها الأبيض المتراخي بأريحية على سرير رحب ذي أعمدة تتخللها منمنمات وزخارف عربية، تحيط بها المساند والرياش والحرير، يفوح منها أريج لم تحظ حواسي بمثله من قبل، عبقت به روحي فازددت ألماً وشهوة، استهللت النظر إليها بشعرها المنثور على الوسادة كوشاح حالك السواد، ثم هبطت بغتة إلى الصدر متجنباً الوجه ذا العينين الساحرتين المخيفتين حتى لا تخمد الرهبة اشتعالي، نهدان وارفان يكللهما تويجان شفقيان، أشعر بلساني يتلوى وجعاً في فمي، أهبط قليلاً إلى البطن الضامر المنبسط بلا ندبة أو نتوء، أمر بالسرة الصغيرة التي تشبه مؤخرة ثمرة تمر، وأتوقف قليلاً عند مثلث العانة المكور مثل طبق مقلوب على باطنه، أتأمل دغلاً مقصوصاً بعناية بدا معها مثل ظل رعّاش، وبالرهبة نفسها التي تجاوزت بها وجهها،

تجاوزت أيضاً باب مضيق المندب بكل ما يحيط به من هضاب ووديان وبساتين، لتستقر عيناي على الفخذين الوفيرين النابضين، حلقي يجف، أوصالي ترتعش، أعماقي تصرخ، تبكي، تدفعني نحوها بقوة وعنف، وأنا واقف في مكاني كصنم بليد إلى أن سمعتها تهمس بصوتها الذي بدا وكأنه سمع بكاء أعماقي فاستجاب لها:

- اشلح تيابك وتعال جنبي هون ع التخت!

وللمرة الأولى وقعت عيناي في عينيها والتقت نظراتنا كما يلتقي قمران متمردان في ليلة خارج الزمان، أضاءت أعماقي وسكنت روحي واستحالت فوضاي إلى حالة من النظام والتركيز الذي يعرف صاحبه ماذا يريد وكيف يصل!آه... سأنهل من ذلك الكوثر العذب حتى أرتوي وأخمد حرائق شهوتي التي لطالما أرقتني وأرهقتني وعذبتني شهوراً طوالاً. صوتها ليس به غنج أو دلال ولا هو آمر! بل كان نداء، كان رجاء، كان نواحاً سرياً. وتقدمت نحوها بخطوات بدت لي وكأنها تسير إليها منذ الأزل، ومدت لي يدها، أمسكت بها وتعانقت أناملنا وتشابكت وصارت كتلة واحدة نابضة حسّاسة، دنوت منها أكثر، اقترب وجهي من وجهها، أحسست بأنفاسها دافئة رطبة على وجهي، وفي اللحظة التي وضعت شفتي على شفتيها كي أرتشف رحيقهما، فتح الرجل اللغز ذو الشال والعقال باب الغرفة وباغتني بطلقات من مسدسه الأسود على رأسي! فكانت لحظة اليقظة المذعورة من نومي، هببت واقفاً وأنا أردد البسملة مثل أمي حين يدهمها حلم مفزع! اللعنة

حتى في نومي لا أطالها، أما كان لهذا العجوز أن يتأخر قليلاً ريثما أنالها وأطفئ الحرائق المتأججة في باطني مذ رأيتها وحتى هذه اللحظة؟ هل قدر لي أن أظل مدلكاً وناطوراً وخادماً وحسب؟ ولكن ما معنى هذا الحلم ولماذا هذا الرجل تحديداً؟!

خرجت من غرفتي لمباشرة أعمالي وفي قلبي حسرة على الحلم الجميل الذي لم يبلغ نهايته، ورأسي يضج بالتساؤلات والمخاوف من شبح ذلك الكابوس الذي باغتني وأمطرني بوابل من الرصاص...!!

# ابنة الناطور

- هل تعرف من أنا؟

كانت تلك أول جملة استهللنا بها حديثنا في تلك الأمسية الصافية، بعد أن تناول كلّ منّا كأسه وأشعل سيجارته. بدت لي هبة أكثر تلقائية وبساطة من ذي قبل، ولكن ثمة مزيج من علامات الحزن والقلق ترتسم على وجهها، أحسست أنها تريد أن تخبرني عن مشكلة وتريد مني أن أدلي برأيي، أو أن سراً يقلق مضجعها وبحاجة لأن تفضي به إلي تمهيداً لأمر ما في نفسها، وخصوصاً أننا قد تقاربنا كثيراً في الأيام الماضية. أهدت إلي ثياباً جديدة وساعة يد يابانية من الطراز الجيد، وهاتفاً محمولاً، أصرت عليّ أن أقبلها لأنها ترى أن ذلك واجب عليها من ناحية، ومن ناحية أخرى تريدني أن أكون أنيق المظهر مثل كل موظفيها كما تقول، وأما الهاتف المحمول فهي ترى أنه من ضرورات العمل، ولكنني سأعرف لاحقاً السبب الرئيس الذي جعلها تلزمني باستخدام الهاتف. لم تكن تتصنع البساطة معي ولم تفتعل تقاربها الودي مني، فأنا أيضاً أحس بحنانها تجاهي، الذي جعلني أشعر بالاطمئنان والثقة بالنفس بعد سلسلة من المصائب التي حاصرتني منذ أن غادرت أرض

الوطن. زالت وساوسي القهرية وتبددت مخاوفي المتعلقة بالسجن ثم الترحيل إلى أرض الوطن، فضلاً عن الفاقة والتخبط من مكان إلى آخر سعياً وراء الرزق. الآن لم أعد أفكر في تلك الأشياء، صارت لي ظهراً يحميني كما يردد العوام. غير أن مخاوفي الآن أصبحت تدور في فلكها هي، هي وسواسي القهري، هي أحلامي وأنفاسي وقلبي النابض. أكره فكرة أنها تعاملني برقة لأنها تعطف عليّ فقط لأني غريب مشرّد ألجأته الظروف للعمل حارساً في بنايتها، أكره فكرة أنها تأنس إلى حديثي فقط، أكره فكرة أنها تحب حبي لها فقط، أكره فكرة أنها تحب إخلاصي وتفاني في عملي...! أريدها أن تحبني كما أحبها، تشتهيني كما أشتهيها، تدلك لي بدني كما أفعل معها، أليست تلك أشياء مشروعة ومن حقي أن أنالها...!

- إنني لا أعرف عنك سوى تلك الإنسانة الطيبة الكريمة الخلوقة التي أحاطتني بعطفها! ومبتسماً أضفت:
- ألا يكفي هذا؟

رمقتني بنظرة أقرب إلى الرضا منها إلى العطف، وقالت بصوت يغلب عليه الحنان:

- أنت أهل لكل ما أكنّه لك من حب. ولولا أنني أثق بك وبعقلك الجميل لما تقربت منك وأحسست بحاجة دائمة إلى الحديث معك.

أحسست بارتياح شديد وأنا أسمعها تقول تلك الكلمات عني،

ولكن أي حب تعني؟ ذلك هو مكمن وجعي وعذابي وتشوشي. ليس من حق إنسان في قامة ناطور أن يسأل إنسانة بهالة ملكة، بل يتلقى الأسئلة ويجيب عنها فقط، لا يفعل، بل يرد على الفعل بما يرضي سيدته وولية نعمته! ذلك هو قانون المال، ذلك هو الحاجز الذي أنشأه الله، ولن يزيله سوى الله، وإن كان ثمة أناس قد تخطوا الحاجز فهذا لا يعني أنهم قد حطموه، وإن كان ثمة من تمردوا على قانون المال فذلك لا يعني أنهم قد ألغوه، بل يجوز عليهم قول (شواذ قاعدة).

- هذا من لطفك وإنسانيتك مدام هبة.

وضعت السيجارة على حافة المطفأة دون إخمادها، وصبّت كأسين من الكونياك، وناولتني كأسي وهي تقول:

- لا تظن أنني أجاملك، حقيقي أنا أثق بك وأستمتع بصحبتك، أنت إنسان رائع.

لم تمهلني كي أجيب على كلماتها الرقيقة بمثلها، بل دلفت إلى الموضوع الذي كانت قد ابتدأته وانصرفنا عنه بكلمات المجاملة مباشرة، كأنها ضجرت من عبارات الاستحسان وأرادت أن تضع لها حدّاً!

- (أنا هبة محمد بلال، من بيت بلال، أفقر عائلة بالنبطية. جدي بلال كان عاملاً بالأجرة في حقول التفاح والكروم، وبدلاً من أن يعمل أبناؤه عملاً نافعاً، تبعوه في خيبته، فأورثهم الفقر. تزوج أبي من أمي التي تنتمي إلى عائلة أكثر فقراً من عائلته،

وانتقلا إلى بيروت، هنا في هذه البناية التي صارت ملكاً لي.
ولكنهما لم ينتقلا كساكنين، بل ناطور وزوجة ناطور!) .

صعقتني المفاجأة، ولكنني تظاهرت بالهدوء. ومضت هبة تروي القصة لي، كأنها قصة قصيرة تقوم بقراءتها من كتاب أو مجلة، حيث اختزلتها بدقة في جمل معبّرة كما يفعل أي قاص متمرس حذق!

- (لقد أنجبانا أنا وأخي في غرفتك...غرفة الناطور. وماتت أمي بعد عامين من ولادة أخي الذي يصغرني بعام واحد. هكذا نشأنا وترعرعنا يتيمي أم. كنا نساعد أبي في عمله بالبناية، لم ندخل مدرسة، ولم نتلق تعليماً نظامياً. علمتنا القراءة والكتابة ابنة وكيل البناية السابق الذي توالى بعده ثلاثة وكلاء قبل مجيء بوفادي. كانت تأتي من شقتها لمشاركتنا في اللعب كل يوم، لن أنساها ما حييت، كانت رقيقة وحنونة وطيبة القلب، ولم تكتف بتعليمنا القراءة والكتابة فقط بل قاسمتني ثيابها وطعامها ودماها. لقد هاجرت وذويها إلى أستراليا عقب تلك الحقبة بقليل... تقريباً في مطلع العام ١٩٧٠ م. ولم تعد قط إلى لبنان بعد ذلك، ولكنها تركت أثراً لن يمحى أبداً من وجداني. طبعتني بطابعها دون أن تدري، تعلمت منها أن لا فرق بين إنسان غني وإنسان فقير سوى الحظ، الحظ الذي جعل الأول يرفل في الرخاء والنعيم وجعل الثاني يتمرغ في جحيم الفاقة، ولكن خلاف ذلك، قد يكون الفقير

أكثر غنى من أثرى الأثرياء!! كنت لا أزال في الثانية عشرة من عمري عندما بدأ الخطاب يتوافدون على أبي طلباً ليدي. كانوا يرمونني بنظرات لم أستطع فهم مغزاها إلا لاحقاً.. بعد أن كبرت قليلاً، كنت أخافهم وأهرب من أمامهم فيما هم يلتهمونني بنظراتهم اللاهبة الجائعة المصحوبة بكلمات الغزل التي تصب في مجملها على جسدي الممتلئ وقوامي الفارع.. هكذا كانوا يرددون. غير أني أدركت شيئاً مهماً وخطيراً، ذلك الإدراك الذي غير مجرى حياتي وحياة عائلتي بمن فيهم أعمامي وخؤولتي! هو أنني أملك جسداً فاتناً. الكثيرون يمتلكون مواهب استثنائية، ولكنهم يجهلونها، وآخرون يدركونها ولكنهم يعجزون عن استغلالها، ولكن أغلبهم يدركونها بعد أن تذوي وينضب معينها لتصبح بلا قيمة أوجدوى. وفكرت في تلك الفترة المبكرة من عمري أن أستغل مفاتن جسدي قبل أن تذوي! فأنا لست أديبة أو خطيبة مفوهة أو أكاديمية شاطرة، ولا صاحبة صوت جميل مثل فيروز وأم كلثوم ونجاة الصغيرة وسعاد محمد! تلك المواهب التي تظل مع الإنسان إلى أن يصبح عجوزاً. إنني صاحبة جسد جميل وحسب، وقد يذبل قبل أوانه بسبب مرض ما أو حادث عرضي.. حادث سير مثلاً أو سقوط من مكان مرتفع أو ضربة أتلقاها من أحدهم أو عيار ناري أو انفجار

يفضي إلى عاهة مستديمة في جسدي كما حدث مع كثيرين أثناء الحرب الأهلية! فقررت أن أعمل ما وسعني كي أحقق حلم إنقاذ عائلتي من الفقر عن طريق الموهبة التي حباني إياها الله...جسدي!! تماماً كما فعلت الراقصات وعارضات الأزياء ونجمات السينما. وفكرت بشكل جدي في أن أمتهن واحدة من تلك المهن. ولكنني كنت على يقين أنني لن أستطيع أن أمارس تلك الأعمال هنا في بلدي لبنان، لأن أبي سيكون لي بالمرصاد وقد يقتلني، فقررت الهرب بعيداً عن ذلك الرجل الذي ينوء تحت ثقل الموروث الديني الطائفي والتقاليد العشائرية المتأصلة في وجدانه، فكرت في روما وأثينا وقبرص وباريس والقاهرة... بل شرد خيالي بعيداً.. إلى هوليوود! وبدأت أضع الخطط وأشاهد التلفزيون وأسمع النشرات وأتابع المجلات والصحف اليومية، لعلي أعثر على خيط يقودني إلى تلك المدن التي باتت حلماً يؤرقني ويقض مضجعي. وذات يوم وفيما كنت أعبر الطريق عائدة إلى البناية حاملة بعض الأغراض التي أرسلتني طلباً لها إحدى ساكنات البناية من السوبر ماركت؛ فجأة توقفت سيارة فخمة أمامي ونزل منها رجل في مثل عمر أبي أو يزيد قليلاً. كان يرتدي ثياباً خليجية، وبصحبته رجلان بثياب عادية.. أعني بناطيل وأقمصة وربطات عنق. كان يرمقني بالنظرات اللاهبة نفسها

التي يرميني بها غيره من الرجال. لم أبال به في بادئ الأمر، ولكنه حين تمادى في نظراته وأخذ يتبعني، انتابني الخوف، أسرعت خطاي فأسرع هو ورائي، جريت فجرى ورائي. كان باب البناية مفتوحاً كالعادة خلال ساعات النهار. دخلت وبسرعة دلفت إلى غرفتنا، وجدت أبي منهمكاً في صنع قهوته وفي فمه سيجارة، وقبل أن أتفوه بأي كلمة، أخذ الرجل يطرق الباب ويلقي بتحية (السلام على من في الدار). نظر أبي إليّ باستغراب وخطا نحو الباب فرأى الرجل الغريب يرفل في ثيابه الخليجية مثل ملك أو أمير أو شيخ كما كنت أراهم في التلفزيون وعلى صفحات المجلات والصحف اليومية، كان بهيّ الطلعة ذا شاربين كبيرين مسرحين بعناية، حليق اللحية تفوح منه رائحة مسك نفاذة. لم يمهل أبي ريثما يرد تحيته، فقد شرع يمطره بوابل من العبارات الموجزة السريعة: (أنا خالد الصراف من عائلة الصراف، المعروفة، والصراف هو لقب أطلق على أبي مذ كان يملك صرافة صغيرة، الآن غدت بنكاً له أفرع في جميع العواصم والمدن العربية الهامة، وكلها تحت إدارتي وإخوتي، وأنا رئيس مجلس الإدارة، فأنا الابن البكر لأبي وأنا الذي تحملت عبء الإدارة بعد رحيله).

الآن تكشف لي اللغز، فهو زوجها إذن! ذلك العجوز الهرم. وأنا الذي ظننت أنها من إحدى السلالات العريقة في لبنان. فهالتها ليست

هالة امرأة غنية فحسب، بل توحي لكل من ينظر إليها بأنها من إحدى العائلات المعروفة التي ظلت تتبادل الحكم فيما بينها عقوداً طويلة في هذا البلد الصغير الذي أصبح رمزاً للتدخلات الأجنبية والإقليمية في شأنه الداخلي، بل إنه صار مستباحاً من قبل تلك القوة. وليس من المستغرب أن يتصرف ذلك الرجل مع تلك الطفلة الصغيرة بذلك النزق وتلك الصفاقة الشبيهة بالحشرية الخارجية في الشأن اللبناني، وسيؤكد تأويلي هذا بقية قصة (السيدة) هبة حين واصلت تقول: (سكت قليلاً بعد أن عرّف نفسه بتلك الكلمات الموجزة، ثم أرسل إليّ نظرة متشامخة وهو يقول لأبي الذي لم تفارق الدهشة وجهه مذ رأى الرجل يقف على عتبة غرفتنا الحقيرة بمظهره المهيب ذاك: هل تقبلني زوجاً لابنتك؟). كان شعوري في البدء خوفاً، ثم استحال الخوف إلى دهشة، واستحالت الدهشة إلى انبهار كامل بحذق الرجل وثقته بنفسه وجرأته اللامعقولة ورائحة السلطة والثروة التي تفوح من نواصيه طاغية على رائحة المسك. تردد أبي وارتاب وقد اجتاحته موجة عارمة من الذهول ولم ينطق بكلمة لا أو نعم أو بأي كلمة أخرى. لقد افترسني وأبي واقتحم بساطتنا وحياتنا الذاوية، وخصوصاً حين أدخل يده في جيب جلبابه الناصع البياض وأخرج جزدانه وأخذ يحشو جيوب أبي بأوراق نقدية خضراء اللون، لم أرها ولم أعرفها إلا في الصور على صفحات المجلات، التي رأيتها حين أخذت تتساقط على الأرض فيما كان الرجل يحشو جيوب بنطال وقميص أبي الباليين، ثم ختمها بوضع

بطاقة صغيرة مذهبة الحواف على الكرسي الذي يجلس عليه أبي لمراقبة بوابة البناية الرئيسية وهو يقول: سوف تجد عنواني ورقم هاتفي في هذه البطاقة وأرجو ألّا تتأخر عليّ بالرد لأن انتظاري لن يطول أكثر من أسبوع واحد، أستودعك الله يا...! ثم توارى عن أنظارنا!!).

هكذا إذن اشتراها بماله كما تشترى المومياء. سمعت من بعضهم عند بداية قدومي إلى سوريا، وحين رأيتهم يتجوّلون بسياراتهم الفارهة ويحتلون الفنادق الفخمة في قلب دمشق أنهم يأتون لعقد صفقات شراء نساء لبيعهن في بلادهم بأغلى الأثمان. سألتهم مستغرباً: أوَتظنون أن زمن الخلفاء والسلاطين لا يزال قائماً ببلاد الشام؟ أجابوني بكل بساطة: بلى... لا يزال قائماً ولكن بوسائل معاصرة!! لاحقاً علمت أنهم يتزوجونهن ويأخذونهن إلى بلادهم، وهناك يطلقونهن في مقابل المال لتصبح زوجة لرجل آخر! وتأكدت لاحقاً أنها تجارة رائجة، ليس في سوريا ولبنان وحدهما، بل منتشرة في مصر والمغرب بشكل أوسع. حيث غامر بعض الصحفيين الشجعان بحياتهم ونشروا تلك المأساة الفاضحة، رغم إدراكهم التام بخطورة ما يقومون به من عمل، ثم تلاهم بعد ذلك العديد من المخرجين بعمل أفلام وثائقية وسينمائية تتناول المأساة نفسها، إلى أن صارت معروفة للجميع. ولكن هل قام المسؤولون وولاة الأمور بوضع حد لها، أو أقله البدء بمحاربتها؟ بالطبع لا! لأن مصلحة البعض مرتبطة ببقائها! فيما يفضل البعض الآخر الصمت وغض الطرف تجنباً لما يعرف بـ(أزمة دبلوماسية) قد

تتسبب بإقالات وطرد من مناصب وضياع امتيازات وإغلاق سفارات والخ...!

واصلت هبة تروي قصتها المثيرة العجيبة:

- (لم يسألني أبي رأيي، اكتفى بالنظر إلي فيما كنت ممسكة بالأوراق النقدية الخضراء الجديدة اللامعة الجميلة التي تساقطت من جيوبه المحشوة على الأرض وعيناي تدمعان من شدة الفرح كي يدرك أنه لا مانع عندي أن أصبح جارية وملكة! في اليوم الثاني، وعند العاشرة صباحاً اختفى أبي عن البناية دون أن يخبرني إلى أين سيذهب، ولكنه عاد عند الواحدة ظهراً وبصحبته خالد. فيما بعد... بعد أن تمت الصفقة بين أبي وخالد، علمت أن أبي صار شريكاً ووكيلاً لخالد في حقل الكروم الذي كان يكدح فيه هو وآباؤه وأبناء عمومته عقوداً طويلة. أما هديتي أنا فقد كانت فيلا في النبطية تبعد قليلاً عن الحقل الذي جمع فيه أبي كل إخوته وأقاربه للعمل معه. هي الفيلا التي شهدت أتعس أيام حياتي وأشقاها على الإطلاق، تلك الأيام التي جعلتني أدرك أن المال كما هو سبب في سعادة بعض الناس من أمثال خالد، هو أيضاً سبب تعاسة بعض منهم مثلي أنا!!).

قالت هبة تلك الكلمات وصمتت وكأنها تجتر ذكرى أليمة، ظللت أنظر إليها فيما وجهها قد تغيّر فجأة واحمر وعيناها قد اغرورقتا بالدموع ثم انفجرت باكية وهي تقول بصوت متقطع:

- (كـان يستعمل المقويات الجنسية ويقضي الليل في اغتصابي...).

واستمرت هبة تبكي بحرقة وألم دون أن أفعل أنا شيئاً لمواساتها وتسكين الوجع الذي ظلت تكتمه طوال هذه الأعوام، لينفجر الآن أمامي كما ينفجر البركان ويجعلني في كامل عجزي عن تخفيف وطأته عنها، عن المرأة الوحيدة التي أحببت في حياتي. عذراً ملاكي... كم أشعر بالحياء والخيبة حيال عجزي عن إزاحة جبل الحزن الذي تنوئين تحت وطأته، كم أشعر بالخزي لعدم قدرتي على فك أغلال الألم التي تكبلك، كم يتملكني العار لعجزي عن تحريرك من المرارة المتكدسة في باطنك...!

وقفت وسحبت قطعاً من الأوراق الصحية من الصندوق الفضي القابع على الطاولة بيني وبينها، خطوت نحوها ووقفت أمامها لحظات أنظر إليها دون أن أقول أو أفعل شيئاً إلى أن هدأ نحيبها ورفعت وجهها تنظر إليّ، يا إلهي! أي سحر وأي حزن في تينك العينين اللؤلئيتين، أي نبل يشع منهما وأي ألم يعتصرهما.

- هوني عليك مدام هبة لعلك الآن تعلمين الدواء جيداً بعد أن أدركت الداء!

قلت ذلك فيما أنا أمسح دموعها بحزمة المناديل الصحية في يدي. ثم طبعت قبلة على خدها وجلست إلى جانبها على الأريكة وهي المرة الأولى التي أقبلها على خدها وأجالسها على الأريكة نفسها مذ عرفتها. في المقابل لم تبد هي أي تمنع ولم يظهر على وجهها أي

استغراب، بل تعاملت مع حركاتي حيالها وكأنها أمر طبيعي بيننا. الأمر الذي شجعني على المضي قدماً:

-ما مضى قد مضى، نحن أبناء اليوم، هذا بلدك أنت وليس بلده هو، يمكنك أن تتخلصي منه وتفتحي صفحة بيضاء في حياتك تنتظرك كي تسوديها بحروف سعادتك! رمتني بنظرة ثابتة كما لو أن حديثي قد أثار غضبها، ثم قالت بمزيج من العطف والسخرية:

- أنت لا تعرف بيروت! بيروت يعرفها أهلها الذين ولدوا وترعرعوا فيها. أما أنتم الغرباء فقد عرفتموها من خلال الكتب والمجلات ووسائل الإعلام، أما وجهها الآخر فنعرفه نحن اللبنانيين. نعم هناك بيروت الجميلة الحالمة الفاتنة كما صورتها دواوين الشعر والروايات، ولكن هنالك أيضاً بيروت القاسية التي تقذف بالفقراء إلى الهامش وتضع الأغنياء في المركز، فمن يملك مالاً غمرته بيروت ببريقها وعطرها، ومن لا يملك ألقت به في هوّتها المظلمة التي لا مخرج منها سوى الرحيل، وهذا ما قررت فعله وسعيت لأجله لولا أن جاءتني الثروة وأنا في مكان دون مجهود مني، دون مهانات غربةٍ وضياع في دروبها المعتمة وتسكّع في لياليها الموحشة!
- ولكنك الآن لست كالأمس، لم تعودي هبة الطفلة بنت الناطور الفقير، بل أصبحت ناضجة غنية، وتملكين ما يجعلك تعيشين حياة كريمة بمنأى عنه!

صمتت لحظات ثم قالت كالمستطردة:

ظاهرياً!

قلت:

- لم أفهم!

هزت رأسها يمنة ويسرة وقالت بنبرة يغلب عليها الامتعاض:

- وأنا أيضاً لم أفهم ولن أفهم!
- أرجوك، أوضحي لي!
- كيف أوضح لك ما لم أفهم ولن أفهم!
- ألست أنت صاحبة هذه البناية والمطاعم و...!

قاطعتني بحدة قائلة:

- على الورق فقط!

لم أقل شيئاً، ولكن يبدو أنها قرأت الحيرة والاستغراب اللذين ارتسما على وجهي، فأضافت دون أن تتخلى عن نبرتها الممتعضة:

- في مرة من المرات حاولت أن أنفصل عنه فوجدت نفسي في الشارع لا أملك سوى سيارتي وثيابي التي أرتديها...!

ظللت أنظر إليها وقد تفاقمت حيرتي واستغرابي، فأضافت هي تقول:

- هو ليس رجل أعمال فقط ولا من المقربين من العائلة المالكة في بلاده فحسب، بل هو أكثر من ذلك، هو شيطان!

يستحيل استغرابي وحيرتي إلى ذهول أشبه بذاك الذي يصيب

إنساناً ينظر إلى كارثة مقبلة نحوه دون أن يفعل شيئاً لإنقاذ نفسه منها!
تضيف هبة بكلمات يغلب عليها الحنق هذه المرة:

- رأيت مسؤولين كباراً يستقبلونه في مكاتبهم ومنازلهم كملك، رأيتهم يتراكضون حوله كما يتراكض العبيد حول سيدهم، رأيت بعضهم يخرج عقب اجتماعات سرية معه مخطوفي اللون وكأنهم مقبلون على جهنم، فيما يخرج البعض الأخر وتهاليل الفرح ترقص على وجوههم وكأنهم مقدمون على الجنة، فأدركت أني وقعت في براثن لعبة أكبر من أن أفكر مجرد التفكير في التخلص منها بإرادتي!!

ثم أضافت بنبرة حاسمة هذه المرة:

- من الأفضل أن نتوقف عند هذا الحد، وأرجو أن لا نعود مرة أخرى للحديث في هذا الشأن، لأنه يؤلمني ويذكرني دائماً أنني غارقة في أعماق بئر سحيقة لا أمل لي في الخروج منها!

وبعد صمت طويل كان يخيم علينا، مزّقته هي بقولها الذي نزل عليّ كالصاعقة:

- ضب أغراضك لأنك راح تترك العمل بالبناية!!

ولكنها لم تتركني نهباً لتساؤلات حيث أردفت بنبرة مشحونة بالعطف:

- لو علم أنك تزورني في شقتي ليلاً، أنا وأنت سنفقد حياتنا. سأدبر لك سكناً جيداً وعملاً أفضل، أنت شاب مهذب وتستحق حياة أفضل!

قلت بعاطفة مندفعة:

- ولكن كيف لي أن أراك بعد ترك البناية؟

قاطعتني بصوت واثق أوحى لي بأنها قد وضعت خطة محكمة، ولم يبق سوى تنفيذها:

- دع هذا الأمر لي!

# حزن

وضعت ثيابي في حقيبة وكتبي في صندوق من الورق المقوى، وارتديت ثياباً جديدة كما طلبت مني هبة. كانت قد حسبت لكل شيء حسابه، أعلنت لسكان البناية أني مغادر إلى وطني لقضاء شهر مع عائلتي وسوف أعود لمواصلة عملي في البناية بعد المدة التي منحتني إياها، وأنها سوف تأخذني إلى المطار ثم تعود بصحبة ناطور جديد وهي في طريق عودتها كانت قد اتفقت معه ليخلفني مدة الشهر الذي سأنفقه مع أهلي في أرض الوطن. رن جرس الأنترفون، فأجبت، جاءني صوت هبة حنوناً حزيناً تطلب مني أن أحمل أشيائي إلى سيارتها في الكاراج وسوف تكون هي بصحبتي بعد ثوانٍ، ففعلت. كان ثمة صمت مخيم على البناية، إذ كان أغلب السكان والأطفال لا يزالون في مواقع أعمالهم ومدارسهم وجامعاتهم.

سلكنا دروباً فرعية متشعبة أفضت بنا إلى جسر سليم سلام ثم إلى طريق المصيطبة، أوقفت هبة السيارة أمام مبنى عتيق مكون من طبقتين، رمقتني بعطف وهي تقول:

- هذا هو مطرحك الجديد!

حملت أشيائي وتبعتها. كنت مضطرباً ومشوشاً ولا أفعل إلا ما تطلبه مني هبة. أخبرتني أن العجوز سيقضي بقية العام الجاري هنا في لبنان، ولن يغادر إلا في زيارات عمل قصيرة إلى اليابان وبعض المدن العربية. حسبت عدد الشهور التي تبقت على انقضاء العام فألفيتها ثمانيه أشهر... يا لخيبة الأمل! سيجثم على صدرها ويكتم أنفاسها هذا المدى الطويل! وأنا ماذا سأفعل، وكيف سأراها؟ لعل الجواب في رأسها الجميل المتعب، ولكن يلح عليَّ السؤال الذي سبق لي وسألتها إياه:

- (كيف لي أن أراك...؟) لتجيبني الجواب نفسه وبالثقة نفسها:
- دع هذا الأمر لي!

كان منزلاً جميلاً من الداخل، نظيفاً ومفروشاً بأثاث جديد، كثير الغرف ومطلياً باللون الأزرق.

خيرتني: (أي غرفة أفضل)، فاخترت غرفة وصالة في الطبقة العلوية شبه منفصلتين عن بقية المنزل ولهما شرفة مطلة على الشارع العام، حيث أستطيع تأمل المارة والسيارات في غدوها ورواحها. أخبرتني أن هذا المنزل قد تم بناؤه إبان العهد العثماني، وأن صاحبه كان يعمل جابياً للضرائب وقد تمت مصادرته إبان حكم الانتداب ليتم استعماله كمكتب لخدمات النقل البري. وبنهاية حكم الانتداب، قامت الحكومة الوطنية بطرحه في مزاد علني، حيث رسا على رجل من سماسرة ذلك الزمان، ثم باعه إلى رجل آخر، ومنذ ذلك الوقت ظل

ينتقل من شخص إلى آخر دون أن يجد من يزيله ويشيد على أنقاضه عمارة سكانية مثلما صار مع جيرانه. ولاحظت أن كل ما يحيط به من مبانٍ هي عمارات استثمارية حديثة الإنشاء.

- في القريب العاجل سنقوم بهدمه ونقيم على أنقاضه أعلى وأفخم برج في الشرق الأوسط! واستحالت هيئتها إلى تلك المرأة التي عرفتها أول لقائي بها، المتنفذة المهيبة التي تفوح منها رائحة السلطة فيما كانت تفصح عن نياتها حيال المنزل. لم يعجبني ذلك! لقد اعتدت هبة الفاتنة العذبة التي أحبها من كل قلبي وأشتهيها بكل رعشة في بدني.

قلت لها مستغرباً:

- ولكنه الآن نظيف ومرتب كما لو أن عائلة تقيم فيه!
- نحن نرسل من يقوم بتنظيفه من حين إلى آخر لأن بعض عملائنا الأجانب يفضلونه على الإقامة في الفنادق.
- ترسلون من يقوم بتنظيفه؟ عملاء أجانب؟!!

وقهقهت ضاحكة: يا لعذوبة ضحكها، يا لرقة موسيقى صوتها الذي يتردد صداه في كبدي!

- اطمئن، لن يزعجك أحد. ولا أحد يأتي إلى هنا دون علمي. ثم إنني بحاجة إلى من يقيم فيه بشكل دائم، لأن ثمة لصوصاً قاموا بنهبه ثلاث مرات متتالية، في البدء سرقوا ثريات وتحفاً باهظة الثمن، ثم عادوا مرة ثانية وسرقوا ستائر وملاءات

وأواني وأدوات مطبخ، ثم عادوا للمرة الثالثة فلم يجدوا ما يسرقونه سوى الشمعدانات العتيقة واللوحات الفنية المعلقة على الجدران وهي أغلى من كل سبق وسرقوه من قبل. الحمدلله إنه لم يكن ثمة زوار أجانب خلال هذا العام. وقد كلفني إعادة تأثيثه مبالغ طائلة. قلت في نفسي ساخراً من نفسي: (تمت اليوم ترقيتي من ناطور بناية إلى ناطور منزل!).

قالت هبة وكأنها قرأت ما يدور في ذهني:

- سوف أضاعف لك معاشك.

لم أهتم بقولها، وهي تعلم أنني لم أسألها مالاً من قبل ولم أطلب منها زيادة معاشي، بل كنت أعف عن عطاياها وهداياها لولا إصرارها عليَّ بأخذها. قالت قبل أن تنصرف:

- لن يكون لدي وقت محدد أزورك خلاله، ولكن أعدك بأنني سوف أهاتفك يومياً كي أطمئن عليك وسأغتنم أي فرصة لزيارتك.

قالت تلك الكلمات وهي تضمني إليها بحنان وتقبلني على خدّي ثم تنصرف. بقيت وحيداً حزيناً يقتلني الحنين إليها، أشعر بالأسف لكوني لم أرجها أن تبقى بصحبتي ولو قليلاً من الوقت. وضعت ثيابي في خزانة الثياب ورصصت كتبي على أرفف الكتب في الصالة، تناولت حماماً وارتديت بيجاما وجلست في البلكونة أدخن سيجارة وأتأمل السيارات تروح و تغدو على جسر سليم سلام، ولمحت فتيات في بناية

مقابلة لي يجلسن على الشرفة ويدخن النارجيلة، ينظرن إلي بفضول، لا أبدي اهتماماً بهن، أعود إلى مشاهدة السيارات تروح وتغدو فوق الجسر، التفت إليهن مرة أخرى، يتسربن إلى داخل المنزل فيما تبقى إحدهن تراقبني، شقراء وترتدي ثياباً سوداء، ترمقني بنظرات لم أستطع أن أتبين معانيها هل هي فضول، هل هي استغراب، هل هي نداء؟ برحت مكاني عائداً إلى الصالة، جلست على أريكة وشغّلت التلفزيون بواسطة المفتاح النقال، فأطلت أول ما أطلت قناة mbc ومذيع يرتدي زياً خليجياً يجري حواراً مع أديبنا الكبير، يا لحظي الجميل، ابتسمت أعماقي رغم الذي ملأها بسبب بعدي عن هبة، ودب النشاط في بدني وعادت الحيوية إلى ذهني بعد أن أصابه الفتور، سمعته يجيب عن سؤال المذيع له عن عشقه للشعر فيقول: (السليقة العربية هي سليقة شعرية، نحن في السودان يطلب منا أن نُفهم الناس أننا عرب، أكبر دليل على عروبتنا هو سليقتنا الشعرية، لن تجد في العالم العربي أكثر حباً للشعر من السودانيين، فنحن بطبيعة الحال نحب الشعر ونرويه وننشده). أصبت بخيبة أمل كبرى وأنا أسمع من هذا الرجل الذي أعشق حروفه كما عشق هو حروف المتنبي وهو يهرطق بتلك العبارات، ترى هل ضحك المذيع في داخله وهو ينظر إلى أنفه وشعره ولون بشرته التي لا تمت إلى الجنس العربي بأي صلة، بل هي شرق إفريقية مائة بالمائة، ثم إذا افترضنا أنه عباسي النسب كما يزعم الزاعمون، فما هو وضع قبائل البجا في شرق الوطن والفور والنوبة في الغرب والقبائل

النوبة في الشمال والنيلية في الجنوب؟ إنه التهميش والإقصاء الذي تمارسه السلطة ونفر من المثقفين السودانيين على أعلى مستوياتهم! ثم ما معنى أن يربط الشعر بالانتماء العرقي والإثني؟ إذن لنسمّ شعوب أميركا اللاتينية إسباناً، والأميركيين الشماليين انكليزاً، وبالمثل شعوب المغرب العربي والسنغال وتشاد الذين لا يزال الكثير من شعرائهم وكتّابهم يكتبون وينظمون الشعر بالفرنسية! وتساءلت بمرارة: كيف سيكون لنا هوية واضحة مثل بقية شعوب الأرض فيما يرفض مثقفونا وحكامنا إفريقيتهم في مقابل تشبثهم الغريب المضحك المثير للسخرية بدم عربي مشكوك في وجوده لدى قلة من أبناء الوطن القارة السودان؟؟

يعاودني الفتور والإحباط والحزن فأطفئ التلفزيون قبل أن تنتهي المقابلة وأتمدد على الأريكة محاولاً النوم!

# سأقاوم

أي مجهول هذا الذي غمرك بظلمائه...
أي ناموس هذا الذي كبلك بأغلاله...
أي قدر هذا الذي طوقك بجدرانه...
أي مصير هذا الذي احتواك بخيلائه...
واهماً أنا اصطفيتك...
واهماً أنا عشقتك...
واهماً أنا أدمنتك...
توهمت أن خلاصك على يدي...
وأن نواميس الأرض طوع لي...
وظلمات الكون فريسة لنور عيني
والأقدار تحنو عليّ
فإذا بمصيرك الجبار متربص بي
عنيداً مشمّراً أردانه
قاسياً ناشراً أنيابه
مستهزئاً يصفعني بأذياله

يتوعدني الموت والدمار
نافثاً في جوفي النار
وأنا العنيد سأقاوم وأقاوم
إلى أن أخطف النصر المجيد
أو أموت بحبك شهيداً...!!

يا لعجائب الزمن، يالغرائب القدر! كانت تلك قصيدة جادت بها قريحة صديقي الرسام الذي تمرد على كتابة الشعر من أجل أن يتفرغ للرسم تحدياً لوالد حبيبته الذي رفضه لأنه لا يؤمن بالفن كمهنة يمكن العيش منها، بل ذهب أبعد من ذلك بأن أجبر ابنته على ترك دراستها الجامعية كي لا تلتقيه. كتب تلك القصيدة واندفع بكامل طاقته في دروب الفن، إلى أن حقق حلمه وشقت لوحاته طريقها إلى الخارج بأثمان كفلت له حياة يسيرة، ولكن حلمه في الزواج من ملهمته قد تبدد حين علم أن والدها قد أجبرها على الزواج بابن اخيه الذي جمع بين السلطة والثروة كصاحب أكبر شركة متخصصة في تصدير الصمغ العربي في البلاد، وربما في أفريقيا والعالم العربي أيضاً، كما هو عضو في مجلس النواب المزعوم! ما أشبه حال صديقي بحالي، لو أسقطنا فروقاً قليلة لاكتشفنا أن وضع هبة أشبه بوضع محبوبة صديقي الفنان، كما أن وضعي أشبه بوضع صديقي! وقادتني ذكراه إلى البحث بين أشيائي عن الكتاب الذي طبعه من حر ماله، والذي تضمن بعض أشعاره وخواطره الوجدانية التي كان محورها محبوبته قبل وبعد

فراقهما. وجدته في قعر حقيبة ثيابي في الصندوق الحديدي نفسه، المنمنم بنمنمات ونقوش صينية، والذي كنت قد اشتريته على وجه الخصوص من سوق الحميدية بدمشق كي أحفظه فيه، خوفاً عليه من التلف بسبب كثرة الترحال، فهو مهم بأهمية صاحبه ومكانتها في نفسي من ناحية، ولإيماني بقدرته الأدبية الاستثنائية من الناحية الأخرى، ولو أنه اهتمّ قليلاً بموهبته الأدبية لكنّا الآن قد حظينا به أديباً كبيراً كما حظينا به رساماً كبيراً. وهذه الأشعار والخواطر هي في مجملها إشراقات من وحي محبوبته ومعذّبته التي طالما أحبها وأخلص في حبها ولا يزال مخلصاً لها، إذ إنه لم يتزوّج رغم الضغوط التي يواجهها من قبل أفراد عائلته، بل صار يرفض مجرّد الحديث عن موضوع الزواج! وقد أسرّ لي في إحدى المرّات أنه حاول نسيانها ولكنها ما تفتأ تتسلل إلى كل لوحة يرسمها وكل قصيدة يكتبها وكل خاطرة يدوّنها؛ صارت طيفاً يؤرّقه، حلماً يراود صحوه، فكرة تشكّل نفسها بطرائق مختلفة في ما تجود به ريشته من أعمال. ها هي تشكّل نفسها في هذا الكتاب الذي صار أعزّ كتاب إلى نفسي، أعود إليه بين حين وحين، أستنشق فيه عطر صديقي، أسمع صوته، نبضه، أرى فيه وجهه الحزين وابتسامته الذاوية وأنامله وهي تمسك بالريشة أحياناً والقلم أحياناً أخرى، تلون فراغات قماش القنّب تارة، وتسوّد بياض الورق لتحوّله إلى أرواح تصخب حزناً وفرحاً تارة أخرى. طالعت في صفحته الأولى إهدائه لي: (صديقي حسام، هذا نثري يبوح إليك.. يهمس في أذنيك: توقف طويلاً، وتأمّلني كثيراً،

لأنّك لن تجد أجمل مني..!). وفي الصفحة الثانية رسالته إلى نفسه: (رسالة إلى فنّان.. قد يعتريك شعور مؤلم بعدم جدوى ما تبدعه من فن، مهما بلغت أصالته ونضجه وجماله. وقد يتملّكك الإحباط عندما تترامى إلى مسمعك آراء الدهماء والحسّاد وأنصاف العارفين. ولكن يجب ألّا تتزعزع ثقتك بنفسك وبموهبتك، واعلم أن الأعمال العظيمة تبقى درراً متوهّجة لا يفنيها الزمان مهما اشتدّت ظلمته). وقرأت في الصفحة الثالثة إهداءه إلى معذّبته كما وصفه: (إنني هناك! أترنّح في الحد الفاصل بين الحلم واليقظة.. بين الشك واليقين.. بين الحقيقة والخيال! أناديك.. أناجيك.. أمدُّ يدي إليك.. أنشد الخلاص فيك! هل أنتِ هنا؟؟). ثم أخذت أقرأ في الصفحات التالية بشكل متتابع أحياناً، وأقفز متجاوزاً عدداً من الصفحات أحياناً أخرى، مستعجلاً مرة ومتأنياً مرات أخرى. وبالرغم من أنني أحفظ معظم ما فيها من أشعار وخواطر، إلّا أنني أصاب بدهشة القراءة الأولى كل مرّة، وكأنني لم يسبق لي أن قرأته من قبل؛ كنت كل مرّة أكتشف شيئاً جديداً فأشعر بمتعة جديدة، كنت أستنشق بين كل كلمة وكلمة عبق ياسمينة، وبين كل سطر وسطر قبلة شفاه دافئة، وبين كل صفحة وصفحة هناك شمسٌ وقمر وغمام ورذاذ، وبين كل فصل وفصل وشوشة ريح وحفيف أشجار وهبّة نسيم وخرير مياه، ولحن شحرور سعيد حزين هام وحيداً بين البحر والسحاب! قرأت: (يجيئني صوتها ندياً كنسمة نيلية، هامساً كطيور صباحية، حالماً كأمسية ربيعية، يداعبني دعابة أنملة لغيتارة،

يحتويني احتواء فراشة لزهرة، كم أشتاقه لحظة وداعه المؤلمة، كم أبدو تائهاً وغريباً وحزيناً وأنا في انتظار طلّته الخريفية، التي تزيل غربتي ووحشتي وتشوشي، تبدد أحزاني ولوعتي؛ إنه صوت معذِبتي! أحبها.. أحبها..أحبها، فهي رائعة كأيقونة سماوية، مدهشة كنشيد عذب قهر الزمان وحطّم أغلال المكان وصار ترنيمة على كل لسان!) وقرأت: (قطرةٌ من دموعك تتحدّى بحاراً كونية، قبلة من شفتيكِ أحلى من كرزة طرية، بسمة من ثغرك تفتن شمساً أفقية، زفرْة من أنفاسك أعذب من نسمة ندية، همسة من صمتكِ تقارع سمفونية، لمسة بأناملك تسحر لوحة قزحية، حضوركِ يطغى على أعياد قدسية..يا عشقي.. يا شوقي.. يا يقيني وشكي.. يا تقاي وفسقي! أوّاه..كم أحتاجكِ!) وقرأت: (أحالني غيابكِ القسري عني إلى شبح متخبط في خرائب معتمة، شهيقي ظنون، زفيري وهم، طعامي وجع، شرابي نحيب، نومي جمر، أحلامي لهب! فصرت كتلة من جحيم لا يُحتمل، وحشة ممتدة بلا أمل، فراغ بلا حدود، سيل من الدموع، ينبوع من الألم، بحرٌ صاخب من الضياع! أوّاه... كم أشتاقك!) وقرأت:

(شيءْ في حرفكِ، أشعل المدى بيني وبينكِ بحريق أشواقٍ همجيةٍ تعذّر عليّ اطفاؤها..!!).

(أجمل امرأة في الكون هي تلك التي تجعل من كلماتها مصابيح تمكّن محبوبها من الوصول إليها دون تخبط وألم! أذكى رجل في الكون هو ذاك الذي يملك حاسة الغوص عميقاً في حروف محبوبته

إلى أن يتسنّى له سماع نبض قلبها، استنشاق عطر أنفاسها، لمس درر معانيها الكامنة في أعمق أعماقها!). (في قلبي.. كان ثمّة زوايا ودهاليز مظلمة ولكن مرورك عبرها بدّل ظلمتها إلى هالة من الضياء! في قلبي.. كان ثمّة ورود ذابلة ولكنها عادت يانعة عطرة بوقع نظراتك الفاتنة! في قلبي.. كان ثمّة سنابل يابسة ولكنها عادت حية نابضة بفعل أنفاسك الدافئة! في قلبي.. كان ثمّة أنهارٌ جفّت وينابيع نبضت ولكنها تفجّرت عذبة وتدفّقت سلسة بسحر لمساتك الخالدة! وبسحرك عاد القلب إلى سابق عهده: بستانٌ يضجُّ عذوبة وجمالاً وألقا...!). (اجتاحني شلّال حضورك المهيمن، ففتح نوافذ القلب المغلقة وأذاب جليد الوحشة الرّابضة في ثنايا الروح وأزال المرارة المتكدّسة في كواليس العمر، وغرس بذور الإشراق في أروقة المستقبل. لن أقول لكِ شكراً فاتنتي، لأنها لا تكفي ولن توفي، ولكنني أسألكِ البقاء كي أقدم لك فروض العشق والوفاء! أليس هذا بكافٍ؟؟). ثم قفزت متجاوزاً عدّة صفحات لأتوقف عند هذه اللوحة التي أبدعها بأطايب الكلام، وتحت عنوان «حوارية البنفسج والغمام» قرأت:

البنفسج: أنا من تحدّى الألم بالنغم.

الغمام: أنا من بدّد اليأس بالرذاذ.

البنفسج: أنا أفانين الروح ونوازع القلب وصدى الذاكرة.

الغمام: أنا زغاريد الأمل ونشيد الفجر وينبوع الفرح.

البنفسج: أنا لحن الفراش وتفتّح النرجس وسباق الموج إلى مرافىء الشوق.

الغمام: أنا الجسر الذي عبرت به الكائنات من الأزل إلى الأبد.

البنفسج: وأنا الذي وهبت الكائنات لون الخلود.

وحلّت نسمة قادمة من سفر بعيد، هدهدت الغمام بعطرتها وربّتت البنفسج برقّة وهي تقول: أنتما البهاء والدفء والسكون والفنون.. فهياكما تعانقا، وتعانق البنفسج والغمام!!

ثم أطلّت القصيدة اللغز التي كنت دائماً أختم بها قراءتي، القصيدة التي ظل يرفض كل مرّة أن يفصح لي عن ملهمتها وهو يقول: دعني أستعمل حقي كرسام وأترك لك مساحة للتأويل والتخمين، لعلّك تتعرف على صاحبتها دون أن أفصح لك عن اسمها:

بقدومكِ تناسل المطرُ وفاض النيلُ جميلْ

والطيرُ غنّىَ لكِ وهبّ النسيم عليلْ

وتمدّد الرملُ على السهلْ وتوهّج بياضاً أصيلْ

ورقص الشجرُ لمرآكِ طربانْ

والتفّ حواليك الزهرُ فوّاح الندى ريّانْ

وتجاوبت زغاريد الفرح من كل شيء ومكانْ

وتوارت الشمسُ حياءً وافتتانْ

وقال القمرُ: لو أني أعلمُ أنّكِ زائرة السودانْ، لهربتُ توّاً من تلك الأفنانْ!!

كنت كلما خمّنت له اسم إحدى معبوداته يهزّ رأسه مصرّاً على عدم الجواب، كنت أعلم عن افتتانه بابتسامة الأميرة ديانا، وعيون

صوفيا لورين، وصوت نانا موسكوري، وفي مرّة من المرّات قفزتُ من مكاني وأنا أهتف:

- وجدتها وجدتها!

- ما هي؟

- زائرة السودان "الملهمة".

- من هي؟

- أم كلثوم عندما زارت السودان لدعم المجهود الحربي ضد إسرائيل!

قهقه بالضحك كما لم يقهقه من قبل:

- عندما زارت كوكب الشرق السودان كنت صغيراً حينئذ، ولم أكن أعي شيئاً عن مقدمها ولا عن كتابة الشعر!

قلت محاولاً دفعه إلى الاعتراف بصحة تخميني:

- الشعر هو ترجمة لذكريات عشناها بحلوها ومرّها، أعمقها تلك التي عشناها في طفولتنا، أنظر محمود درويش: (أحنّ إلى خبز أمي وقهوة أمي) والسياب:(أنشودة المطر) وبابلو نيرودا في ديوانه الرائع (ايسلانيجرا) الذي كان رصداً شفافاً لطفولته.

قال مبدداً الأمل في نفسي:

ولكنني لم أسمع عن زيارة كوكب الشرق إلّا من أبي الذي حضر حفلها في ستاد الخرطوم بعد أن كبرت، لا أعرف كيف

تم استقبالها، وكيف كانت حالة الطقس، ولم أعش مشاعر الجمهور الذي احتشد في الاستاد لمشاهدتها وهي تشدو. وأنت خير من يعلم أنّ الشعر هو مرآة تعكس ما يجري في دواخلنا، فكيف أستطيع أن أعبّر عن أحاسيس لم أعشها؟؟

أحسست بحالة من الإعياء الذهني، وفتور عمّ سائر بدني. أعدّت الكتاب إلى مطرحه في الصندوق الحديدي المزيّن بمنمنمات ونقوش صينية، ثم وضعته في قعر حقيبة الثياب وأعدت ترتيب بقية الأشياء فوقه. تناولت قرصين من الأسبرين وتمددت على الفراش.

# ويشرئب الفرح من ثنايا الحزن

ما أتعسها لحظة، حين هاتفتني هبة لتخبرني أن العجوز قد حضر فجأة عند منتصف ليلة البارحة، وأنها لن تتمكن من زيارتي كما وعدتني، ولن تتمكن خلال الأسبوع الجاري أو المقبل لأنها ستكون بصحبته خلال رحلته إلى طرابلس لإكمال صفقة شراء بناية، وإعادة تأهيلها من أجل استثمارها كشقق سكنية، وتحويل طبقتها السفلية إلى كاراج لبيع السيارات، وختمت حديثها تسألني إنْ كنت بحاجة إلى فلوس، فأجبتها بأن معي من المال ما يكفيني لشهور.. بل لعام بأكمله، ولكنني: (أشتاقكِ وأريد أن أراكِ). اعتذرت لي بأن الأمر ليس بيدها، وأنها لا تستطيع الابتعاد عن زوجها طوال إقامته بلبنان لأن كل أعماله مرتبطة بحضورها شخصياً..! وطلبت مني أن أصبر إلى أن يسافر هو إلى طوكيو لإكمال صفقة سيارات.

لم أسألها متى سيسافر، ظللت صامتاً إلى أن ودعتني وسألتني أن آخذ بالي من نفسي ثم أغلقت الخط.

لم يكن أمامي ما أفعله سوى التعامل مع الواقع رغم مرارته، هي ليست لي وأنا لست لها، إننا من عالمين مختلفين، زوجها لو علم ما بيننا

من وصال وألفة..لو علم أنني أحبها وهي أيضاً كذلك دون أن يفصح أحدنا للآخر عن حقيقة ما يعتمل في صدره، لوعلم أنها أبعدتني عن البناية حفاظاً وخوفاً على علاقتنا منه ومن الأعين المتطفلة، ستكون العواقب وخيمة على رأسي ورأسها، لا أدري ماذا سيفعل، ولكن ما أخبرتني به هبة عنه، يؤكد أنه صاحب سطوة لا قبل لي ولها بالوقوف في وجهها!

وجدت متسعاً من الوقت للطواف بشوارع المدينة وزيارة أصدقائي وتسقّط أخبار الوطن من النادي السوداني. شاهدت بعض الأفلام السينمائية الجديدة بسينما السارولا، أهمها (ناصر٥٦) الذي لعب دور بطولته النجم الأسمر المتألق أحمد زكي، و(الآخر) للمخرج الجريء يوسف شاهين، وزرت مسرح المدينة عدّة مرّات، حضرت خلالها مسرحية (يا سكندرية بحرك عجائب) للمخرج يعقوب الشدراوي، وليلة شعرية ألقت خلالها الممثلة المخضرمة نضال الأشقر عدداً من قصائد نزار قباني. حاولت دخول حفل فيروز الذي أقيم بالملعب البلدي، ولكنني عدت أدراجي حين رأيت الزحام وسيارات الدرك والدبابات حول المكان، كأنها حرب وليست حفلاً للملاك فيروز، وتكرر الأمر نفسه عندما ذهبت إلى مسرح البيكادللي لحضور حفل مغني الأوبرا الشهير بفروتي، وجدت جنوداً مدججين بالسلاح يطوقون المكان، وعلمت أن الرئيس رفيق الحريري وقرينته سيشرّفان الحفل، فأسرعت مبتعداً عن المكان وفي قلبي حسرة، كم تمنيت وخطّطت وانتظرت هذا اليوم بفارغ صبر كي أشاهد ذلك العبقري الذي بعث

الحياة مجدداً في فنّ الأوبرا بعد احتضارها الطويل، وبعد أن أوشكت أن تصبح موميا في متاحف الفنون. ولكن لم تفت عليّ مشاهدة رقص إستعراضي حيّ على الجليد لفرقة بريطانية زائرة ببيروت هول بمنطقة سن الفيل فعوّضتني ساحرات الجليد حفل بفروتي بما أبدينه من مهارة ورشاقة وجمال. كنت مبتهجاً وأنا أتنقل بين دور العرض وأشاهد أولئك المبدعين وهم يقدمون روائعهم، روائع ما كان يتسنّى لي مشاهدتها لو أنني بقيت في بلادي، وفي ظل نظام الإخوان المتخلف الذي أحال البلاد إلى مسرح للأعمال الإرهابية، ومرتعاً للأصوليين والمتطرفين. ومع كل تلك المشاهدات الرائعة الغنية التي عايشتها حساً ومعنى، إلّا أنني كنت أشعر بحميمية خاصة تجاه البحر ، ولا أدري إن كان ذلك يعود لنشأتي على ضفاف النيل أم لأنني كنت أنسى موقتاً ما أنا فيه من ألم بسبب بعد هبة عني! كنت أحلق في الفضاء الأزرق الممتد مع نورس، أتأرجح في قارب هائم بين أمواج البحر، أذوب في كل بارقة ضوء وفي كل هبّة نسيم. كنت أبدأ سيري عبر الشاطئ الممتد من عين المريسة إلى أن أصل إلى الروشة، حيث أجلس قليلاً على رصيف الكورنيش. كل شيء جميل، كل نسمة نقية، كل صوت نغم، كل كلمة قصيدة، كل همسة نشيد، كل امرأة عذبة، كل رجل شهم، وكل طفل عصفور مرح.. لا خوف، لا قهر، لا جوع، لا حزن، لا ألم. هكذا كنت أحس أناي، والناس، والأشياء.. كل الأشياء! وأحياناً كثيرة كنت أواصل سيري إلى أن أبلغ شاطئ منطقة الجناح، حيث الرمال البيضاء الممتدة بامتداد

الشاطئ، وحيث يَحلو الجلوس والاستحمام، هناك أتمدّد على الرمل، وأرقب انزلاق الشمس البطيء في الأفق الغربي إلى أن تغطس وتختفي في عمق البحر، أغفو قليلاً ثم أستيقظ لأرى السماء وقد استحالت إلى غطاء أدكن مرصّع باللؤلؤ فأشعر أن العالم لا يزال جميلاً خيّراً ورحيماً. أهبّ واقفاً، أنسرب في أزقة الجناح المظلمة، أستحث خطاي عبر دروب كئيبة تفوح منها رائحة الفقر، فأستيقظ من حلمي العذب وأعود إلى الواقع المر، إلى أناي المقهورة المهجورة في صحراء لا بدء لها ولا انتهاء. ويقفز إلى ذهني السؤال اللجوج... هل كل ذوي الثراء الفاحش يمارسون تلك التسلية بمن هم حولهم كما يفعل زوج هبة الآن؟ ذلك العجوز الذي تبدو على وجهه الطيبة والسماحة، ذلك الذي يمسك بجميع خيوط اللعبة بيده ليحركها كما يشاء بكل مهارة ودهاء؛ كلنا لعبة في يده، هبة وأنا وخدمه وحرّاسه وكبار المسؤولين الذين اشتراهم بالمال وحوّلهم إلى أدوات طيّعة ضمن منظومة لعبته. قد يستبدل أياً منّا بدمية أخرى متى ما شعر أن مدّة صلاحيته قد انتهت، أو لأنه لا ينسجم مع خطة ما، فيضعه في رفوف خياله الشيطاني إلى أن يحين موعده لحظة أخرى تناسبه! شهرٌ مضى دون أن أراها أو أسمع صوتها، شهرٌ مضمّخٌ بالشوق والحنين والألم، شهر... كل يوم يمر يزداد قلبي ولهاً وتدلهاً بها... كل يوم يحتدم الوجع ويحمر الجمر ويتفاقم اللهب!!

# أبيض وأسود

دعيتُ لحضور ندوة بـ«دار الندوة». كانت منقولة مباشرة بواسطة إحدى القنوات التلفزيونية، لا أدري أي قناة، ولكن الشاب الذي وجّه إليَّ الدعوة، وهو فنّان تشكيلي من أبناء جنوب السودان يدعى جورج شول، كنت قد تعرّفت إليه صدفة بالنادي السوداني، فأخبرني أن عدداً من الكتّاب والفنانين والشعراء وأساتذة الجامعات سيشاركون في الندوة، وأن مارسل خليفة سيشارك بالغناء. ذهبت وبي شوق عظيم أن أرى وأسمع ذلك المبدع وهو يشدو بصوته الشجي وروائعه التي ميّزته من غيره من مطربي الكسب السريع والشهرة المشبوهة، فأسّس لنفسه مدرسة كما فعل من سبقوه من عظماء الفن العربي الأصيل، وأصبح له صيت ومكانة متميزة بفضل جهده ومثابرته وموهبته المتفرّدة؛ شخصياً صرت أبدأ يومي بالاستماع إلى أغاني مارسل قبل أن أبدأ أعمالي الروتينية اليومية، بل صار هو في مقدمة ذلك الروتين. للأسف لم يحضر مارسل. ذهبت متأخراً قليلاً عن الموعد المحدد، رأيت عدداً من السودانيين وحشداً من اللبنانيين. كان محور الحديث احتقار اللبنانيين لذوي البشرة السوداء، وكان عنوان الندوة: (عنصرية الشعب

اللبناني)، وهي رد فعل لما قد صار مع الجاليات اللبنانية بالكونغو وسيراليون والسينغال، حيث تم إحراق متاجرهم وتعرّض الكثيرون منهم للقتل والضرب المبرّح. الكل أدلى برأيه. بعض المتحدثين اللبنانيين عزوا ذلك إلى إحساس اللبنانيين المفرط بالتفوّق، وآخرون عزوه للغيرة والحسد حيال النجاحات الباهرة التي حققها اللبنانيون في بلاد المهجر. تذكرت في لمحة سريعة ذلك الشاب الذي استوقف صديقي جورج فيما كنّا نسير معاً لزيارة أحد الأصدقاء وسأله قائلاً:

- أعلم أن نوحاً عندما بنى سفينته بأمر من ربه قبل أن يرسل الطوفان، أعلم أنه قد حمل فيها من كل نوع من الكائنات ذكراً وأنثى، ولم يكن بين البشر إنسان أسود واحد، فمن أين أتى السود ليملأوا القارة الإفريقية ثم لينتشروا في بقية أرجاء العالم؟

رأيت جورج يفتح فمه حيرةً دون أن يقول شيئاً من فرط مفاجأته، ظلّ الشاب ينظر إليه منتظراً الجواب عن سؤاله، وقد بدت عليه الجدية وهو يطرح السؤال، ولم يكن يعني الاستفزاز أو الحط من قدر جورج، الأمر الذي جعلني أحترمه وأجيبه بمثل ما أبداه من جدية:

- لقد أثبت العلم أن الأنسان الأوّل في موطنه الأوّل أثيوبيا كان أسود البشرة، وقد تفرّعت عنه جميع ألوان البشر التي نراها الآن منتشرة في جميع القارات إثر عملية تطوّر طويلة وشاقة حدثت في تكوينه الجسماني بسبب المناخ والأنشطة التي ظل

يمارسها، ويمكنك أن تتقصى قليلاً كي تعرف أن ما أقوله لك هو ليس نظرية ابتكرها الخيال العلمي، بل هي حقيقة نتجت عن اكتشاف جسد بشري بأثيوبيا يرجع عمره إلى ملايين السنين، وهو الآن موجود بالمتحف الطبيعي بواشنطن. وأما سفينة نوح فلم يعثر لها على أثر حتى الآن، ولا يعلم بمكان وجودها إلّا الله وحده!

رأيت الشاب يفتح فمه حيرةً، فيما يبتسم جورج بحالة من الظفر ويشدّني من يدي مستأذناً الشاب لأن لدينا موعداً يجب أن ندركه! والحق أن أمر الإنسان لعجيب؛ بعض المتطرفين يؤكدون أن الله قد خلق الإنسان على صورته، دون أن يخبرونا أي إنسان يقصدون، الأبيض، أم الأسود، أم الأصفر، أم الأحمر، أم الهجين؟ في حين أنّ (المخرّفين) والسُذّج يؤكدون أن سواد البشرة ما هو إلّا لعنة من الله قد حلّت على حام بن نوح لخطيئته حين نظر إلى أبيه نوح وهو عارٍ، وقد شملت تلك اللعنة ذريته إلى يوم الدين استجابةً من الله لدعوة نبيه نوح؟؟!!

كانت قد سبقت تلك الندوة العديد من اللقاءات التلفزيونية مع نخبة من المفكرين وأساتذة الجامعات، وكلّها تناولت الموضوع نفسه:(عنصرية اللبنانيين). فضلاً عن مقالات وتقارير صحفية على خلفية الهجمة الشرسة على لبنانيي المهجر. إنني وبكل صراحة أحترم هذه الشفافية التي تحلّى بها اللبنانيون وهم يقومون بعمليّة نقد ذاتي

قاسية وغير مسبوقة في جميع بلدان الوطن العربي. فالمأساة ذاتها قائمة في جميع الأقطار العربية، ولكنها لم تطرح للنقاش من أجل معالجتها والقضاء عليها، والإنسان الأسود لا يزال يعاني ويتألم في تلك الرقعة الجغرافية من محيطها إلى خليجها. قدّمني جورج كي أتكلم دون أن يستأذنني، لكأنه يعلم أنني سأرفض لكوني لست مهيّأ للتحدّث، وهو يعلم أن مثل هذه الندوات تحتاج إلى تحضير، حيث اعتمد فقط على نشاطي السياسي أيام الجامعة كما سمع عني هنا وهناك قبل أن يلتقيني ويقدّم لي نفسه. أربكني بقوله فيما كان يقدمني: (الآن جاء دور المناضل الصلب، صاحب الصولات والجولات أيام حياته الطلابية، الأستاذ حسام عز الدين)! لا مجال للتنصل، فقد وضعني جورج أمام الأمر الواقع، أحرجني بتضخيمه لي دون أن يعلم أن الحالة النفسية لذلك الطالب الجامعي المشاكس الجسور الذي لم يكن يخشى منازلات التيارات الرّجعية داخل حرم الجامعة وخارجه، بل كان يفحمهم بحججه ومهاراته في إرباك خصومه إلى أن صاروا يتجنّبونه، وقد تم اعتقاله من قبل زبانية الأمن عدة مرّات، فلم تزده الاعتقالات إلّا إصراراً وصلابة، ولكن كانت النتيجة أن سدّت كل أبواب العمل في وجهه عقب تخرّجه، رغم أنه حصل على امتياز مع مرتبة الشرف. إصراره على العمل في وزارة المالية أو أي من مرافق الدوله ورفضه العمل في القطاع الخاص، دفع ثمنه بالهروب إلى المجهول وحياة الذل! هذا ما لم يعلمه جورج عن ذلك الطالب النزق،

لم يعلم أن حالته النفسية الآن تبدّلت إلى نفسية ناطور وضيع لا يفعل شيئاً سوى طاعة أوامر سادته ساكني البناية؟ ولم يعد يصلح للخطابة أمام حشد من الناس! ومع ذلك وقفت وسرت نحو منبر الخطباء بخطى مرتبكة، الرؤوس تستدير نحوي، الأنظار صوّبت إليّ فيما كنت أسير إلى أن وقفت على المنبر. تمهّلت قليلاً قبل أن أبدأ الحديث، وقررت أن أتحدث وكأنني أوجه حديثي إلى جورج فقط، وكأن ليس ثمّة أحد سواه داخل القاعة، كما كنت أفعل أيام الجامعة، عندما كنت اختار وجهاً من الوجوه المألوفة بالنسبة إليّ وأوجّه إليه الحديث متجاهلاً بقية الحضور، وذلك كان يساعدني كثيراً على تخفيف حدّة توتري ويبقي ذاكرتي حاضرة. قلت وأنا أقرّب فمي من مكبر الصوت :(ليس لدّي أمل في الكبار الذين تشرّبوا الحياة، لأنهم نضجوا ونضجت في أذهانهم كل مكوّنات وموروثات بيئتهم التي نشأوا وترعرعوا في أحضانها. في عصر الكذب والنسيان هذا ينسى المرء من هو ومن أين أتى! ينسى بحالة تدعو إلى الإشفاق على ذاكرته أن عدد البيض الذين تمّ استعبادهم عبر التاريخ فاق بعشرات المرّات وربما مئات المرّات عدد السود الذين استعبدوا، وأن أقاليم الأناضول والقوقاز وأوروبا الشرقية ظلّت إلى عهود قريبة مصدراً لا ينفد من العبيد والجواري، وأن قدماء الأمم من أشوريين وبابليين ومصريين وفرس وإغريق ورومان كانوا يحيلون أسرى حروبهم إلى عبيد، كذلك فعل العرب المسلمون إبّان فتوحاتهم الكبرى، وفي جاهليتهم كانوا يحوّلون أسرى حروبهم القبلية

إلى عبيد وجوارٍ، وأن نظام الإقطاع في أوروبا وآسيا لم يكن سوى أداة لاستعباد الفقراء الذين يكدحون في الأرض، حيث درج النبلاء على شراء الأرض وبيعها بمن فيها من فلّاحين لا حيلة لهم سوى الخضوع والامتثال لرغبات سادتهم، وإلّا فالموت جوعاً بلا مأوى تحت وطأة البرد هو مصيرهم! تلك البيئة التي تطلق بلا أدنى حرج على إحدى أدوات تنظيف أواني الطعام «سيف العبد»، وعلى نوع من الحلوى «رأس العبد»، وعلى الفول السوداني «فستق العبيد»، وعلى حيّ سكني بطرابلس «حوش العبيد» لأن سكّانه من لبنانيين سمر البشرة! تلك البيئة التي لم تحدثهم عن أخبار غزو الإسكندر الأكبر للمدن اللبنانية وما تبعه من أسر آلاف اللبنانيين وبيعهم في أسواق النخاسة! إنني أعقد آمالي على النشء ومربي النشء: علّموهم أن الإنسان الأسود هو إنسان مثلهم، له عقل، له وجدان، له ذاكرة، علّموهم أنه جميل من الداخل كما هو جميل من الخارج، علموهم أنه يملك روحاً شفيفة وخيالاً خلاقاً!)، وخطوت نازلاً عن المنصّة بعد عبارتي الأخيرة مباشرة، نزلت كما صعدت، لا كلمة شكر لا تحية سلام لا عبارة مجاملة، ومع ذلك انفجرت القاعة بالتصفيق وعبارات الاستحسان، الأمر الذي أكد لي أنهم جادّون وماضون في حربهم ضد العنصرية.

# الأشياء حولي تتلاشى

اجتاحتني موجة قلق فجةً، لا أدري لماذا، كنت قد قضيت يوماً هادئاً لا ضوضاء فيه ولا حدث أثار توتري، قرأت مقتطفات من هنا وهناك، تقارير صحفية عن أحداث محلية، أخباراً فنية من مجلّة الموعد، حواراً مع ماجدة الرومي في ملحق، قصة قصيرة بقلم عاصم الجندي، مقالاً عن محمود درويش بقلم الياس خوري، فصلاً من كتاب «صور المثقف» لإدوارد سعيد، وآخر من كتاب «الثابت والمتحوّل» لأدونيس. شعرت بالملل فشغّلت التلفاز بواسطة المفتاح النقال وشاهدت نشرة الأخبار عبر قناة المستقبل، ثم برنامج خليك بالبيت يستضيف مخرجاً سورياً شديد الاعتداد بنفسه وبأعماله، وانتقلت إلى قناة الجزيرة فأفاجأ باشتباك بالأيدي في برنامج الاتجاه المعاكس، تابعت التفتيش عبر القنوات، ووصلت إلى قناة (أرت)، فقرّرت أن أستمع إلى نخبة من الأغاني: نجاة الصغيرة تشدو برائعتها (عيون القلب)، وعزيزة جلال (ميستنياك)، عفاف راضي (هوى يا هوى)، وردة الجزائرية (بتونّس بيك)، مياده الحناوي(نعمة النسيان)، سعاد محمد (أوعدك). أطفأت التلفزيون وذهبت إلى الشرفة المطلّة على الشارع العام وأشعلت

سيجارة وأخذت أراقب السيارات وهي تروح وتغدو على جسر سليم سلام، نظرت إلى الساعة فإذا بها الثانية بعد منتصف الليل، أطفأت جميع الأنوار وتمدّدتُ على الفراش، وفيما كنت أحاول النوم جاهداً، سمعت رنيناً، إنه رنين جرس الباب، ولكن من يكون هذا ال...؟ أيعقل أن تكون هبة وهي كما أعلم لا تزال برفقة زوجها بطرابلس؟ ربما يكون أحد الجيران وقد احتاجني في أمر ما، ولكنهم لا يعرفونني ولا أعرفهم؟ ربما كان أحد أصدقائي الذين أعطيتهم وصفاً لمكان إقامتي الجديد عندما زرت كل منهم أخيراً، وقد قر رأيي على الاحتمال الأخير فسرت نحو الباب، أشعلت ضوء الصالة، تمهّلت لحظة ثم فتحته، وقبل أن أتمكن من النظر إلى هيئة الطارق جيداً تلقّيت ضربة مباغتة وعنيفة على وجهي، رأيت ضوء الصالة يستحيل إلى ظلام ونجوماً صغيرة تدور حول وجهي فيما كنت أترنّح وأسقط على الطاولة الزجاجية وسط الصالة، ثم رحت أسمع أصواتاً مثل مفرقعات ألعاب الأطفال، وأجساماً صغيرة تخترقني بعنف مسببة لي ألماً لم يسبق لي أن شعرت بمثله من قبل؛ كل أجزاء جسمي تشتعل ألماً من رأسي إلى أخمص قدميّ، ثم ايادٍ كثيرة تحملني فيما كنت أتخبط كي أرى شيئاً وتحشرني في شيء ما، لا أدري ما هو؟ من هم؟ وكم عددهم؟ وما هو مصدر تلك المفرقعات؟ وما هي تلك الأجسام الصغيرة التي اخترقت سائر بدني وجعلتني أشتعل ألما ضارياً! وفي ثوان أو أقل من ذلك أحسست بأنني على متن سيارة تسير مبتعدة عن بيتي! أدركت ذلك من خلال أزيز

واهتزاز وصوت لرجال يتحدثون، الألم ينهشني نهشاً، الحرّ يخنقني، دمائي تتفجر حارة وتملأ الشيء المعتم الذي حشروني فيه.. هل هو معتم حقاً أم أنني فقدت بصري، أصرخ بلا صوت، أتنفس بلا هواء، أنظر بلا رؤية، ألمي يتفاقم، هدير السيارة يتصاعد، الرجال يتشاجرون:

- لماذا أمرنا بقتله، إنه شاب معتّر!
- سمعها تهذي باسمه في نومها!
- أما كان أفضل له أن يأمر أحد رجاله في الأمن العام بسجنه ثم ترحيله إلى بلده بدلاً من أن يجعلنا نلطخ أيدينا بدمه؟ عالم تحب القتل بسبب وبدون سبب؟
- فكّر في ذلك، ولكنه خاف أن يعود مرّة أخرى ويلتقيا من وراء ظهره كما كان يحدث؟
- ومن قال له إنهما يلتقيان من وراء ظهره؟
- يا لك من حمار! الرجل له عيون في قصر بعبدا، فكيف يجهل ما يدور في بيته؟
- وماذا سيفعل بها، هل سيقتلها أيضاً؟
- ألم أقل لك إنّك حمار! كيف يقتلها وجميع أملاكه بلبنان مسجلة باسمها هي، وهي من يوقع على كل أوراق عمله؟
- طيّب يا أخي إذا حدث أمر الله وماتت فجأة!
- هاهاهاها، كل مرّة تؤكد لي أنّك ساذج! هذا العجوز أغنى من الدولة اللبنانية، وقصره في روما وحده يساوي كل ممتلكاته

بلبنان، ناهيك عن أعماله وقصوره في جنيف وباريس ولوس أنجلوس وبانكوك ودبي وما خفي كان أعظم! ومع ذلك هو يملك من الحيل ما يكفي ليسترد كل أملاكه في حال موتها!

- (...!)

وقليلاً قليلاً تلاشت أصواتهم واختفى طعم الدم المالح في فمي، ونعيق السيارة صار مثل حفيف أشجار قادم من بعيد ما لبث أن تلاشى، كل شيء تلاشى..!!

# خاتمة

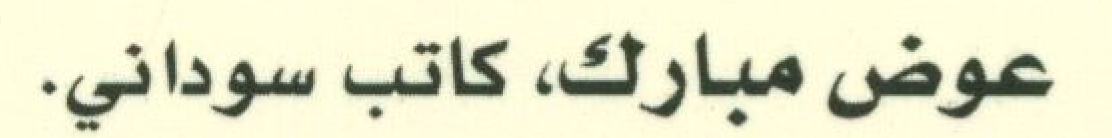
بعد مرور عام على اختفاء حسام عز الدين ، دخل رجل في حوالى الستين من العمر إلى النادي السوداني، كان ربعة القامة، وسيماً، يكلل هامته الوقار، وقد زاد من وقاره الزي الوطني السوداني الذي يرفل فيه مذكراً الحاضرين بآبائهم وأعمامهم وأخوالهم وأجدادهم، العمامة البيضاء حلزونية الشكل على الرأس، الجلباب والعباءة الحرير، المركوب من جلد النمر والعصا الخيزران المعقوفة المقبض، ورائحة العنبر تفوح من نواصيه لتنفح الحاضرين. الجميع وقفوا ورحبوا به وأفسحوا له مكاناً وأجلسوه، قدموا له الماء والشاي. وبعد أن عرّفهم بنفسه أعلن لهم أنه يبحث عن ابن له يدعى حسام عز الدين الشلّالي، وقد حضر بالأمس من أرض الوطن خصيصاً لهذا الغرض. لاذ الجميع إلى الصمت! كلّهم يعلمون عن اختفائه الذي صار لغزاً محيّراً لجميع السودانيين المقيمين بالأراضي اللبنانية بمن فيهم أصدقاؤه المقرّبون: عصام وعبد الباقي ومعتز حسن ومصطفى أنور! لا أحد يعلم أين هو،

وما هو سبب اختفائه؟ هل لا يزال داخل الأراضي اللبنانية ولا يريد الإفصاح عن مكانه؟ أم أنه غادرها دون أن يخبر أحداً، أم أنه مات دون أن يُعثر على جثمانه؟! كان أصدقاؤه قد بحثوا عنه في السجون والمستشفيات وكل الأماكن التي سبق له أن عمل بها دون أن يعثروا له على أثر! سألوا المهرّبين لعلّه عاد خلسة إلى سوريا مع أحدهم، ولكنهم نفوا أن يكونوا قد التقوا أو عرفوا شخصاً بأوصافه. ثم انزوى كل أصدقائه في أماكنهم بعد أن أصابهم اليأس في العثور عليه، تجنّباً للشائعات الكثيرة التي انتشرت إثر اختفائه. قالوا إنه قد اختُطف ثم قُتل لأنه كان يعمل جاسوساً لمصلحة جهاز الموساد الإسرائيلي، وقد قتله الموساد بعد أن شكّوا في ولائه لهم بأنه يلعب دوراً مزدوجاً لمصلحة منظمة عربية معادية لإسرائيل! وقالوا إنه قد فرّ هارباً بعد أن اكتشفت أجهزة الأمن اللبنانية أمر تجارته في المخدرات! وقالوا إنه هرب في اليوم نفسه الذي تمّ فيه القبض على أفراد العصابة السبعة الذين تمّت إدانتهم بارتكاب جرائم سطو مسلّح وقتل واتجار في السيارات المسروقة، لأنه كان الرأس المدبر لكل ما ارتكبوه من جرائم! وقالوا إنه كان يدير معملاً لصنع المتفجرات ومدّ الفدائيين الفلسطينيين بها، حيث جاء مباشرة إلى لبنان بعد نيله درجة الدكتوراه في الكيمياء من جامعة موسكو، ووضع كامل خبرته تحت تصرّف منظمة التحرير الفلسطينية، التي أوكلت إليه بتلك المهمة، وأمدّته بكل ما يحتاج من أموال، وقد مات هو ومن معه إثر انفجار نتج من غارة جوية إسرائيلية

على المكان حيث تفحّمت جميع جثث العاملين بالمعمل بمن فيهم حسام! وقالو إنه قد هاجر مع صديقته الهولندية التي كان يراسلها عن طريق الإنترنيت، وإنهما الآن يعيشان معاً في إحدى ضواحي أمستردام! قضى الرجل شهراً بأكمله في البحث عن ابنه بلا جدوى. صدرت الإعلانات مصحوبة بصورة حسام في جميع الصحف الرئيسة اليومية وعبر شاشات التلفزيون، وفي السفارة والنادي السودانيين، ولكن لا شيء، لا أثر، لا خبر سوى المزيد من الشائعات إلى أن عاد الرجل إلى بلاده وهو يجرجر أذيال الحزن والخيبة.

لبيروت وجهان، وجه جميل يعرفه الذين يشاهدونها من الخارج، ووجه آخر يعرفه الغرباء الذين حط بهم الترحال بلبنان!

لقد أبدع الشعراء أروع القصائد وألّف الروائيون أجمل القصص التي تضمنت سحر الطبيعة اللبنانية، جمال المرأة اللبنانية، ألق الليالي اللبنانية، عبقرية الفن اللبناني الضارب الجذور، التاريخ اللبناني الحافل بالبطولات والمآثر والذي تشكل من أرقى الحضارات، ثم انتقل الأدباء إلى وصف الحرب الأهلية التي نشبت بين الطوائف الدينية في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، وإلى الاجتياح الإسرائيلي الذي أسفرت عنه مذابح صبرا وشاتيلا الدامية، وإلى المقاومة اللبنانية الباسلة وصمود الشعب اللبناني أمام العدو إلى أن أجبره على مغادرة أراضيه، فأبدع المبدعون ملاحم سينمائية ومسرحية وتلفزيونية وشعرية وقصصية صوروا خلالها المأساة والمأثرة أجمل تصوير؛ ولكنهم يجهلون أو يتجاهلون عن عمد، أكان ذلك بدافع الاحتقار، أم الاستعلاء، أم عدم الإلمام والمعرفة بتلك الحياة التي يعيشها مهمشو المدينة، الذين يأتي في طليعتهم الغرباء؛ وخيرمثال على ذلك، قصة الشاب السوداني حسام عز الدين الذي سيروي لنا قصته من ألفها إلى يائها مذ ولجت قدماه الأراضي اللبنانية إلى لحظة اختفائه المؤثرة التي لم يعرفها أحدٌ سواه وأولئك الذين تسببوا باختفائه!!






**عوض مبارك، كاتب سوداني.**

**صدر له:**

- أحزان الزمن الغابر (رواية)، دار الفارابي، ١٩٩٨.
- فُتات النسيان (رواية)، دار عزة للنشر، ٢٠٠٢.
- أوراقٌ مبعثرة (رواية)، دار أبعاد، ٢٠٠٨.
- سقوط (رواية)، دار الفارابي، ٢٠١٤.


ISBN 978-614-432-260-4
9 786144 322604